مجلة كامبريدج للبحوث العلمية: مجلة علمية محكمة
تصدر عن مركز كامبريدج للبحوث والمؤتمرات–العدد الثامن الاربعون – آب ٢٠٢٥– صفر ١٤٤٧
ISSN–2536–0027

الممرات المائية في أفق سياسة التوسع البرتغالي في جنوب شرقي آسيا خلال القرن السادس عشر: مضيق ملقا انموذجا

أ.د.نادية كاظم محمد العبودي
الجامعة المستنصرية
dr.nadia.kadhim@uomustansiriyah.edu.iq

الملخص
سلط البحث الضوء على أولى الامبراطوريات التجارية الأوربية(البرتغال) التي هيمنت على أهم الممرات المائية في في جنوب شرقي آسيا(مضيق ملقا) بعد القضاء على سلطنة ملقا الاسلامية وانهاء دورها كقوة مهيمنة في جنوب شرقي اسيا

abstract
The Paper sheds light on the first European trading empires (Portugal) that dominated the most important waterways in Southeast Asia (the Strait of Malacca) after eliminating the Islamic Sultanate of Malacca and ending its role as a dominant power in Southeast Asia.

المقدمة
يقع مضيق ملقا بين شبه جزيرة الملايو وجزيرة سومطرة الاندونيسية، ويعد من أهم الممرات المائية الاسترتيجية المتحكمة بطرق التجارة العالمية عبر جنوب شرقي اسيا، فهو يصل بين المحيط الهادي والمحيط الهندي، ويربط بحر الصين الجنوبي بالمحيط الهندي، الأمر الذي جعل السيطرة عليه مطمحا للأمبراطوريات التجارية الرامية للسيطرة على طرق التجارة العالمية، وألقى هذا الأمر بظلاله على التطور التأريخي للمنطقة، التي شهدت نهضة وأفول عددا من الامبراطوريات التجارية المحلية والاقليمية التي هيمنت عليه؛سري فجايا، ماجافاهيت،سلطنة ملقا الاسلامية، ولم يتوقف الأمر عند ذلك الحد بل تعداه الى الامبراطوريات التجارية الأوربية؛البرتغالية،الهولندية،البريطانية.
وصل البرتغاليون الى الشرق في مطلع القرن السادس عشر حاملين أهدافهم بانتزاع السيطرة على التجارة بين الشرق والغرب من المسلمين ونشر المسيحية. وضمن سياق ذلك برزت أهمية السيطرة على الممرات المائية في فكر القائد العسكري افونسو البوكيرك، الذي انفرد عن اقرانه البرتغاليين في فهم تعقيد التجارة الآسيوية والتفكير والتصرف في نطاق عالمي. ولعله يكون أول من تبنى استراتيجية عالمية للسيطرة على الممرات المائية الرئيسية في آسيا، تبدأ من الساحل الشرقي لأفريقيا إلى جنوب شرقي آسيا. ركزت هذه الاستراتيجية على السيطرة على ما وصفت بـ "البوابات" الأكثر أهمية (المضائق) في المحيط الهندي، ولاسما مضيق ملقا. وضمن سياق ذلك وضع البوكيرك مشروعا قائما على الحكم المباشر على عدد محدود من القواعد الاستراتيجية الرئيسية موزعة على نحو يضمن سيطرة البرتغال على طريق التجارة البحري عبر اسيا، واقامة القلاع التي تمكنها من السيطره على موارد البضائع ولاسيما التوابل، وضمن سياق بحثا تطالعنا قلعة فيموسا التي أقامها البرتغاليون في ملقا وما زالت بقايا أثارها شاخصة الى يومنا هذا. وفي واقع الأمر وضع البرتغاليون أول انموذج للحكم الاوروبي في اسيا. ان ما دفعنا للولوج في هذا الموضوع هو اغفال الدراسات العربية لمضيق ملقا كأحد أهم الممرات المائية التي سعى البرتغاليون للسيطرة عليها في

مجلة كامبريدج للبحوث العلمية: مجلة علمية محكمة
تصدر عن مركز كامبريدج للبحوث والمؤتمرات–العدد الثامن الاربعون – آب ٢٠٢٥– صفر ١٤٤٧
ISSN–2536–0027

القرن السادس عشر. وفي ثنايا ذلك حاول البحث الاجابة عن تساؤلات مهمة، من خلال الرجوع للوثائق البرتغالية والكتب والبحوث ذات الصلة. هل تمكن البرتغاليون فعلا من السيطرة الكاملة على طريق التجارة عبر مضيق ملقا، أم انهم اصبحوا مجرد مشاركون؟ والى أي حد أثرت سياستهم في استبعاد التجار المسلمين على تجارة ملقا؟ وما هو موقف القوى المحلية أشيا وجوهور منها؟ وربما يبقى التساؤل الاهم، لماذا لم يتمكن البرتغاليون بعد احتلالهم ملقا من ان يكونوا قوة مهيمنة، وان يكملوا النمط التأريخي للأمبراطوريات التجارية(سريفيجايا، ماجاباهيت، ملقا) الذي لم يتكرر منذ ذلك الحين حتى صعود الهولنديين؟

أولا: مضيق ملقا مطمح الامبراطوريات التجارية

يعد مضيق ملقا أطول مضيق في العالم، يمتد لمسافة ٨٠٠ كيلومتر تقريبا، يمتاز بكونه ممرا مائيا حيويا ذات اهمية ستراتيجية، فهو يقع بين شبه جزيرة الملايو وجزيرة سومطرة الاندونيسية. ويشكل حلقة وصل بين المحيط الهادي والمحيط الهندي، ويربط بحر الصين الجنوبي بالمحيط الهندي، الأمر الذي جعل السيطرة عليه مطمحا للأمبراطوريات التجارية، الامر الذي ألقى بظلاله على التطور التأريخي للمنطقة، الذي شهد نهضة وأفول عددا من الامبراطوريات التجارية المحلية والاقليمية؛ سري فجايا،ماجافاهيت، وآخرها سلطنة ملقا الاسلامية. ولم يتوقف الأمر عند ذلك الحد بل بل تعداه الى الامبراطوريات التجارية الأوربية، ففي مطلع القرن السادس عشر وصل البرتغاليون الى الشرق حاملين أهدافهم بانتزاع السيطرة على التجارة بين الشرق والغرب من المسلمين ونشر المسيحية(Ryan,1968). وتضمن ذلك الاستيلاء على أهم مراكز التجارة، وهي عدن وهرمز وملقا، وبالتالي غلق الطريق إلى البحر الأحمر والخليج العربي، والسيطرة على التجارة مع الصين. واعتمدت هذه الخطة على غزو عدة معاقل على طول الساحل الغربي للهند، وكان من شأن هذا أن يضمن سيطرة البرتغاليين على طرق التجارة في المحيط الهندي واحتكارها(Lousã And João Pedro Vieira,2021) . وفي ضوء ذلك جرى اول اتصال بينهم وبين الهند في ميناء كاليكوت، وتمكنوا في عام١٥٠٠ من انشاء اول محطة تجارية لهم في كوشين على ساحل ملبار(الساحل الجنوبي الغربي للهند)، واصبحت المستوطنة الاوربية الاولى في اسيا، والتي وضعت الأساس للشروع بتأسيس أمبراطورية البرتغاليين في الشرق(Danvers,1894;Harrison,1954) وتحقيق السيطرة على كل تجارة التوابل في شرق وجنوب شرقي اسيا من خلال السيطرة على الموانئ والمنافذ البحرية المهمة، ولاسيما مضيق ملقا، وبناء القلاع والمراكز والقواعد لتسيير الحملات التجارية والحربية، ولاسيما على السواحل المطلة على المحيط الهندي. وهذا ما اوضحته رسائلهم إلى الملك مانويل الاول(١٤٩٥-١٥٢١)، مشيرين الى **"ان السلع الغنية تنتظرهم شرقا، وان ملقا مصدر رئيسي لهذه الثروة وموطئ قدم مهم على الطريق إلى مملكة الصين".** وهذا يعني ادراكهم الاهمية الاستراتيجية والاقتصادية لمضيق ملقا على الطريق التجاري(Pinto,2013) .

وفي تلك المرحلة من تأريخهم سعى البرتغاليون لتحقيق توسع سريع وطموح في الشرق، وحققوا جانبا مهما من خططهم ومشروعاتهم، ففي عام ١٥٠٥ تمكن الميدا من انزال هزيمة بزامورين كاليكوت وسلطان كوجرات وتعقب سفن المسلمين بعيدا عن سواحل ملبار، وتم إنشاء قلاع في كلوة وحميسة وانجاديف وكانانور وكوشين، وفي العام نفسه نصب الملك مانويل الاول الميدا بمنصب نائبا الملك في الهند(١٥٠٥-١٥٠٩)ومركزه كوشين، ومن هناك بدأت محاولات مد نفوذ البرتغال الى جنوب شرقي آسيا، ففي عام١٥٠٦ وضمن سياق التنافس مع التوسع الاسباني ارسل الميدا بتوجيه من الملك رجالا إلى ملقا ولكنهم فشلوا في الوصول إلى ما وراء ساحل كورماندل، وفي العام نفسه ارسل اسطولا للاستيلاء على احدى القلاع الاسلامية في جزيرة سومطرة(يحيى،١٩٨٩،Danvers,1894). وفي عام١٥٠٩تمكن

مجلة كامبريدج للبحوث العلمية: مجلة علمية محكمة
تصدر عن مركز كامبريدج للبحوث والمؤتمرات–العدد الثامن الاربعون – آب ٢٠٢٥– صفر ١٤٤٧
ISSN–2536–0027

البرتغاليون من الحاق الهزيمة بتحالف المماليك والزامورين معركتي شاول وديو البحرية١٥٠٩ التي اثبتت مدى قوة اسطولهم وفعالية تسلحهم حتى اصبحوا في وضع مكنهم من احراز السيطرة على المحيط الهندي، واقامة الحكم البرتغالي فيه خلال القرن السادس عشر(Ryan,1968; Danvers,1894) . وتعد هذه المرحلة الاولى من مراحل تغيير ميزان القوى بين الشرق والغرب والسيطرة على طرق التجارة العالمية.

ثانيا: البوكيرك منظر استراتيجية السيطرة على الممرات المائية

اصبح البوكيرك نائبا للملك في الهند (١٥٠٩-١٥١٥) وشهد عهده توسع برتغالي سريع في الشرق، حتى اطلق عليه **"قيصر الشرق"** أو **"أسد البحار"**. ولاسيما بعد غزوه سوقطرة (بحر العرب)، ومسقط (خليج عُمان)، وهرمز (الخليج العربي) عام ١٥٠٧، وغوا (الهند) عام ١٥١٠، فضلا عن تحشيده أسطولا عسكريا للاستيلاء على ملقا عام ١٥١١(Lousã And João Pedro Vieira,2021).

انفرد البوكيرك عن اقرانه البرتغاليين في فهم تعقيد التجارة الآسيوية والتفكير والتصرف في نطاق عالمي. ولعله يكون أول من تبنى استراتيجية عالمية للسيطرة على الممرات المائية الرئيسية في آسيا، تبدأ من الساحل الشرقي لأفريقيا إلى جنوب شرق آسيا. ركزت هذه الاستراتيجية العالمية على السيطرة على "البوابات" الأكثر أهمية (أي المضائق) في المحيط الهندي، وفي الوقت نفسه تقويض سلطة المماليك وحلفائهم في البندقية(Pinto,2013). وادرك ان كسر احتكار المسلمين لتجارة الشرق لايتم دون استخدام القوة، وان هذه السياسة لايمكن ان تنفذ بارسال اساطيل دورية من لشبونة بل اعتقد ان اقامة القلاع البرتغالية في مواقع ستراتيجية هي ضرورية لتمكينهم من السيطرة على طرق التجارة (Ryan,1968; Pinto,2013).

اعتمدت مبادئ مشروع البوكيرك على اقامة الحكم المباشر على عدد محدود من القواعد الاستراتيجية الرئيسية موزعة على نحو يضمن سيطرة البرتغال على طريق التجارة البحري عبر اسيا، واقامة القلاع التي تمكنها من السيطره على موارد البضائع ولاسيما التوابل. والمشروع باجمعه املته الاهداف التجارية البرتغالية في اسيا، وكان يرتبط اصلا بالطرق التجارية واسواق الانتاج وليس بالغزو الاقليمي او الحكم الاستعماري، ومن هنا فإن الامبراطورية البرتغالية في جوهرها كانت نظام قلعة تدور حول تركيز القوة البحرية والتجارية في عدد محدود من القواعد الاستراتيجية التي كانت تتجه نحو الخارج الى البحار العظيمة لا نحو الداخل نحو عمق الاراضي الاسيوية، وفي ضوء ذلك كان حكم البرتغاليين يمتد الى مدى محدود فقط الى ما وراء مراكز القلاع وحتى حينما كانوا يفعلون ذلك كانوا يفعلونه في تردد شديد، وفي واقع الأمر وضعت البرتغال أول انموذج للحكم الاوروبي في اسيا. ويمكن ان يعبر عن خطواتها المتتابعه في اهدافها بـ(رحلة- وكالة تجارية- قلعة) وهي الخطوات التي اتبعها خلفائها من الاوروبيين، وظل الحكم الاوروبي في اسيا نظام قلعه حتى القرن التاسع عشر. وقد حصرتها اهدافها التجارية بوجه عام في اطراف الدول والجماعات الاسيوية التي بقيت معظمها لهذا السبب دون ان تتاثر بها الى ان اعادت الثورة الصناعية النظر في تلك الاهداف التجارية ووسعت مداها ووسعت اسس الحكم الاستعماري. وحتى في هذه المرحلة تم اتباع النموذج البرتغالي فبنيت المدن الاستعمارية على هيئة قلعة واصبحت المركز الرئيسي للحكم الاوروبي، على الرغم من ان الغالبية العظمى من سكانها كانوا اسيويين ، الا انها بقيت مكانا مخصصا للاوروبين وامتدادا لوطنهم الام وقد نقلت اليها النظم الادارية والبلدية والدينية والاجتماعية الموجودة في الوطن الام (Harrison,1954)

وانسجاما مع ما تقدم احتل جزيرة سوقطرة التي تتحكم بمدخل البحر الاحمر عام١٥٠٧، وبين ان هناك حاجة لاقامة قاعدة بحرية دائمة على سواحل المحيط الهندي يمكن ان تستخدم لاصلاح الاساطيل وتزويدها

مجلة كامبريدج للبحوث العلمية: مجلة علمية محكمة
تصدر عن مركز كامبريدج للبحوث والمؤتمرات–العدد الثامن الاربعون – آب ٢٠٢٥– صفر ١٤٤٧
ISSN–2536–0027

بالمؤن(Ryan,1968; Pinto,2013). فبادر الى تأسيس قاعدة قوية في غوا ودمر مقاومة التجار المسلمين في كاليكوت واقنع سلطان كوجارات بالتنازل عن غوا عام١٩١٠ فاصبحت غوا مقر قيادة البرتغاليين وقاعدتهم البحرية لتأسيس سلسلة مراكز تجارية تمتد من ارخبيل الملايو إلى الاسكندرية(John,1853). وبعد قضاءه على سكانها من المسلمين(لم يتبق منهم سوى ثلاثة الآف من أصل تسعة الآف)، اتجه لاستعادة دعم الهندوس واعادة تأهيل المدينة بالسكان من خلال اجبار السفن المارة على الرسو في غوا وتشجيع اتباعه على الزواج من الهندوسيات اللاتي تم اختيارهن منذ البداية من عوائل ثرية مسيحية، إذ تم ترتيب ٤٥٠ زيجة ثم جاءت المزيد منها عام ١٥١٢، كما أنشأ مستشفى ودارا لسك العملة. وفي ظل تلك الظروف غادر فعليا كل وكلاء الشحن العرب ساحل ملبار الهندي (Cady,1964).

وفي ضوء ما تقدم أصبحت غوا مركز الهند البرتغالية، وأدى الغزو إلى امتثال الممالك المجاورة، إذ أرسل سلطان كوجارات وزامورين كاليكوت سفاراتهم الى البرتغاليين، وعرضوا التحالف معهم وتقديم المساعدة في اقامة التحصينات.ثم استخدم البوكيرك غوا لتأمين تجارة التوابل لصالح البرتغال وبيع الخيول الفارسية إلى فيجاياناجارا والأمراء الهندوس في مقابل مساعدتهم. ولابد من القول ان احتلال غوا كانت له دوافع محددة، أهمها موقعها الاستراتيجي، ودورها المركزي في التجارة الهندية، وسماتها الخاصة التي جعلتها هدفا ثمينا للبرتغاليين(Pinto,2013). وكانت الخطوة المهمة التالية هي الاستيلاء على مركز التجمع الفعلي في جزر الهند الشرقية ومضيق ومدينة ملقا وكان الاستيلاء عليها مهم جدا بالنسبة للبرتغاليين ليس فقط لانها مركز لتجمع تجارة التوابل بل ان موقعها يؤهلهم أيضاً للسيطرة على طريق البحر الرئيس إلى الصين(John,1853).

ثالثا: اسطول التحقيق في ملقا

في عام ١٥٠٩ وصل ارخبيل الملايو ما عرف بـ(اسطول التحقيق) بقيادة دي سكويرا، وهو أول أوربي يصل الى جنوب شرقي آسيا. وقد صدم ديسكويرا ورجاله بالمظهر الجميل للجزر التي احتشد فوقها رجال ارتدى بعضهم ملابس من اللحاء المحيوك، واخرين الرداء الطويل الذي كان سائدا في الارخبيل حتى وقت قريب ومتسائلين عن زائرهم الجديد. وكان ديسكويرا اول برتغالي نزل في جزيرة سومطرة واجرى مسحا لامكانيات هذه المنطقة. إذ وطأت قدماه اولا ميناء بيدير على الساحل الشمالي الغربي لسومطرة، حيث وجد سفنا تجارية من بيجو والبنغال وبلدان اخرى واقام علاقات ودية مع حاكم الولاية. ثم تابع مسيره إلى مملكة اشيا في الطرف الغربي لسومطرة، ونصب عمودا تذكارا في كل منطقة نزل فيها، ومن هناك اتخذ سبيله عبر المضائق الخطرة بأتجاه ملقا(John,1853).

كانت ملقا بحكم موقعها على طرق التجارة قد اصبحت مدينة كبيرة مزدهرة وقدر عدد سكانها بـ١٩٠.٠٠٠ نسمة، واصبحت العاصمة السياسية لكل شبه جزيرة الملايو والجزر المتناثرة على طول ساحلها. وقد وصل دي سكويرا سفير الملك مانويل إلى ملقا، مع عدد من مرافقيه واستقبله زعماء البلاد بحفاوة وحملوه على ظهر فيل مزين بشكل فاخر، ونقلوه إلى قاعة المقابلة الرسمية في القصر، وقد ابهره تألق المدينة، وقدم رسالة ملك البرتغال امانويل والهدايا إلى السلطان محمود واوضح مطالب الملك بالصداقة والتجارة الحرة مع ملقا. وقد أبدى السلطان استعداده في اول الامر لقبول هذه المطالب الا ان هذا لم يستمر طويلا وعلى حد وصف الباحثين الغربيين **"ان هذا الفجر السعيد للتعامل سرعان ما اعتلته عتمة غيرة التجار المسلمين، الذين ساوى كرههم للبرتغاليين كمسيحيين، حسدهم للتجارة المزدهرة التي وصلتها تلك الدولة لقد تصوروا انفسهم لوردات البحار الشرقية"**(John,1853).

مجلة كامبريدج للبحوث العلمية: مجلة علمية محكمة
تصدر عن مركز كامبريدج للبحوث والمؤتمرات–العدد الثامن الاربعون – آب ٢٠٢٥– صفر ١٤٤٧
ISSN-2536-0027

وفي الواقع تمكن التجار المسلمين، ولاسيما تجار كوجارات وبسبب المكانة المتنفذة في العاصمة ملقا من التأثير على السلطان واوضحوا له كيف تصرف البرتغاليون بوحشية وقتلوا بقسوة بالغة سكان كوجارات المسلمين(Cady,1964). واكد حقيقة ذلك بعض الباحثين بقولهم ان التجار المسلمين (افسدوا) افكار الناس و(نسبوا) الف جريمة إلى البرتغاليين ووصفوهم بانهم قراصنة قساة ووحشيون وولدوا ليدمروا ملوك الشرق وأنهم سعوا في كل مكان بالوسائل المؤذية للتحالفات للحصول على اذن بانشاء قلعة وسلب السكان واستغلالهم كما فعلوا مع الحلفاء في كوشين وكانونار وهرمز وسوفالا. واشاروا على السلطان محمود بدحر مخططات الخونة (John,1853). من هنا يتضح ان التجار المسلمين في ملقا أدركوا منذ وقت مبكر حقيقة اهداف البرتغاليين في محاربة سطوتهم على التجارة العالمية ومحاولة التخلص منهم ولاسيما بعد قضائهم على مسلمي غوا واقصائهم الممالك الاسلامية الهندية هناك.

وفي ضوء ما تقدم اتبع الباندهار تون مطهر[١] سياسة العنف تجاه اسطول التحقيق البرتغالي وباشر باتخاذ اجراءات دفاعية فجلب ٦٠٠ جندي تركي مرتزق وجهز عددا كبيرا من المدافع والفيلة، فضلا عن المدافعين الذين ارسلهم الملايويون والبالغ عددهم عشرين الف وكانت معظم اسلحتهم بنادق نفخ ورماح مسمومة(Cady,1964). وحاول الباندهار تون مطهر ان يستولي على اسطول البرتغاليين ولكن لم ينجح سوى في أسر عشرين من رجاله كما دمر سفينتين من سفنهم وبدلا من ان يحشد سلطان ملقا الجهود لمتابعة مواجهة البرتغاليين فانه اثار استياءا داخليا لاطاحته بتون مطهر واعدامه على اثر خلافات داخلية احيت العداء التقليدي المحلي بين التاميل والملايويون وكان بعض اعضاء مجتمع التجار، ولاسيما الصينيون وبعض التجار من جافا عرضة لمعاملة وصفت بأنها غير عادلة، وإلى جانب ذلك لم يكن المجتمع التجاري الاسيوي يؤيد بشكل جماعي قضية السلطان. وعلى أساس ذلك لم تكن استعدادات الدفاع عن المدينة بالمستوى الذي يمكنهم من ردع البرتغاليين، فلم يكن السلطان محمود قد طلب منذ وقت مبكر المساعدة من الحكومة الصينية، وقد يرد ذلك إلى فشل الصين في تقديم الدعم لتابعتها تشامبا عام١٤٧١كما ان حكومة المينج قد ضعف اهتمامها بجنوب شرقي اسيا آنذاك لمواجهة التتار(Cady,1964).يبدو ان سياسة الباندهار تون مطهر وفرت مسوغا للبرتغاليين لبذل محاولة للانقضاض على سلطنة ملقا وتدميرها وانتزاع دورها الريادي في السيطرة على طرق التجارة بدعوى استرداد الاسرى. ولكن في حقيقة الامر انهم أولعوا بالسيطرة على مركز تجارة التوابل في شرقي اسيا والطريق التجاري الموصل إلى الهند والصين ومن ثم السيطرة على التجارة مابين اسيا واوربا.

رابعا: استيلاء البوكيرك على ملقا

جهز البرتغاليون اسطولا بقيادة دييغو ميندز لاسترداد الاسرى وترسيخ النفوذ البرتغالي في شبه جزيرة الملايو مركز اسيا التجاري، اتجه الأسطول نحو ملبار والتقى هناك بالبوكيرك نائب الملك في الهند، ولاسباب ستراتيجية أخر البوكيرك انطلاق هذا الاسطول حتى نهاية ايار عام١٥١١ وقاده بنفسه بعد ان زاد في دعائمه حتى تكونت الحملة التي انطلقت من كوشين من١٩ سفينة و١٤٠٠رجلا معظمهم من الهنود(John,1853).

استقى البوكيرك معلوماته حول الوضع في ملقا من صديقه المقرب روي دي اورجو الذي كان قد وقع في الأسر، ففي فبراير/شباط ١٥١٠ تمكن من تسريب رسالة للبوكيرك، وصف فيها ثراء ملقا وأهميتها التجارية وضعف قوات السلطان وحثه على غزو المدينة. ومن جانب آخر كان التجار الصينيون والهندوس هم المصدر الرئيسي للمعلومات، ولاسيما تاجر هندوسي من ساحل كورومانديل يدعى نينا تشاتو، الذي كان مستشارا للبوكيرك في هذه القضية، فقد كان التجار الصينيون والهندوس مهتمين بإقناعه بحل الصراع مع

مجلة كامبريدج للبحوث العلمية: مجلة علمية محكمة
تصدر عن مركز كامبريدج للبحوث والمؤتمرات–العدد الثامن الاربعون – آب ٢٠٢٥– صفر ١٤٤٧
ISSN–2536–0027

سلطان ملقا بالقوة، لأن ذلك من شأنه أن يسمح لهم بالتفوق على المجتمع الكوجاراتي الذي كان مهيمناً في السلطنة. كل ذلك جعل قرار غزو ملقا مقبولا لديه قبل وصوله المضيق(Pinto,2013)

اتجه البوكيرك إلى ملقا حيث تلتقي مراحل تجارة البهارات الاربع (جافا، كوجرات،البلاد العربية، فينسيا) (Cady,1964). وكان قرار الغزو قرارا شخصيا منه لم يتوافق مع الخطط التي تم الاتفاق عليها مسبقًا في لشبونة، ولم يكن هناك أمر واضح منها آنذاك. بل ان عملياته العسكرية أثارت احتجاجات وشكاوى قدمت إلى الملك، وتحديداً من جانب مجموعة مؤثرة من البرتغاليين المقيمين في الهند ـ عرفت بـ **"مجموعة كوتشي"** ، الذين عارضوا بشدة خطط ألبوكيرك، والذين هددت مصالحهم بشدة بالاستيلاء على جوا وملقا. وكان من المتوقع آنذاك أن يستخدم البرتغاليون قوتهم البحرية لإجبار سلطان ملقا على توقيع معاهدة مواتية، من شأنها ان تلحق في نهاية المطاف الإضرار بالمجتمعات الاسلامية في ملقا، على غرار ما حصل بالممالك الاسلامية في الهند، فضلا عن بناء قلعة. وبدا أن غزو المدينة(ملقا)، البعيدة عن ساحل مالابار والقواعد البحرية البرتغالية، كان أمراً مستحيلاً. الا ان ثقة ألبوكيرك المفرطة في نفسه وشخصيته الجريئة دفعته إلى اتخاذ خطوة محفوفة بالمخاطر، كما أعطى وجود الأسرى البرتغاليون في ملقا دفعة لقرار الغزو. وبالتوافق مع ذلك صدر في لشبونة بناء على أمر الملك كتيبا باللغة اللاتينية نشر في ايطاليا تضمن اعلانا موجها لكل انحاء اوربا حول غزو البرتغال لملقا(Pinto,2013).

ألقى البوكيرك مراسيه امام ميناء ملقا وكان متعجلا بتحقيق اهدافه في تحرير الأسرى واقامة قاعدة في ملقا، فأمر بتمشيط المدينة باطلاق كل المدافع، فبادر السلطان محمود مسرعا بإرسال رسالة إلى البوكيرك مستفهما فيها عن اهداف هذا الاسطول الضخم اهو للحرب أم للسلام وبين انه لايريد سوى السلام مع ملك البرتغال، وابدى عدم مسؤوليته عما تعرض له وفد دي سكويرا وانه طبق عقوبة الاعدام بحق الباندهار الذي تسبب بذلك الموقف. فتظاهر البوكيرك بالتجاوب معه على امل استعادة الاسرى بمن فيهم دي اورجو، وان يدفع سلطان ملقا ممتلكات الباندهار كلها ثمنا لما استولى عليه من بضائع البرتغاليين(السجل الكامل لاعمال افونسو دالبوكيرك،٢٠٠٠).عدت محاولة السلطان هذه بداية للمداولات والتجاذبات بين الطرفين التي حاول من خلالها كلاهما ان يملي ارادته على الطرف الاخر.

ففي السياق ذاته ارجع السلطان محمود مبعوثه المسلم الى البوكيرك ليبلغه ان الموقف يقتضي الاتفاق على السلام اولا ثم المبادرة باطلاق سراح الاسرى وانه سيدفع لقاء ذلك كل ماتم اخذه من البرتغاليين، غير ان البوكيرك ابى الا ان يتم استرداد الاسرى واخذ الغرامة وبعدها يفسح المجال للحديث عن السلام وانه مطبقا بذلك إرادة ملك البرتغال، ومهددا في الوقت نفسه بان ذلك الاسطول لم يأت ليحمل البضائع وانما ليشن حربا على سلطان ملقا إذا ما رفض عقد السلام، معنيا بذلك السلام الذي يريده ملك البرتغال. ومع استمرار المداولات بين الطرفين بوساطة المبعوثين، بقي كلا الطرفين مصرا على رأيه وكان لكل منهما هدف من وراء ذلك، وبحسب ما افاد به دي اورجو في مراسلاته لالبوكيرك أن سلطان ملقا حاول المراوغة للافادة من الوقت في إقامة استحكامات قوية على الساحل. وينسجم مع ذلك انه امر بتجهيز اسطوله ليصبح مستعدا لكل طارئ وان ينتهي العمل بتلك الاستحكامات باقصى سرعة ممكنة (السجل الكامل لاعمال افونسو دالبوكيرك،٢٠٠٠).

ومن الجانب الاخر يتضح ومن خلال مراسلات البوكيرك مع دي اورجو ان الأخير وجد ان حاكم ملقا مازال يبدي عنادا فلا هو يريد تسليم الاسرى البرتغاليين ولا عقد معاهدة الصداقة والسلام المعروضة عليه باسم ملك البرتغال والمتضمنة على اقامة البرتغاليين قاعدة لهم في ملقا، لذا وجد البوكيرك انه إن تطورت الامور على نحو اكثر خطورة فلابد للاسرى ان يتحملوا المشاق ويتحلوا بالصبر لان البوكيرك قد عقد

مجلة كامبريدج للبحوث العلمية: مجلة علمية محكمة
تصدر عن مركز كامبريدج للبحوث والمؤتمرات–العدد الثامن الاربعون – آب ٢٠٢٥– صفر ١٤٤٧
ISSN–2536–0027

العزم على ان يعمل كل ما يصب في صالح ملك البرتغال وان ينهي هذا الامر بتوجيه قواته ضد ملقا. وبازاء ذلك ابدى دي اروجو استحسانه لموقف البوكيرك متمنيا ان لا يلحق بالبرتغاليين واسطولهم أي اذى أو هزيمة في سبيل انقاذ حياته، واستمر بالتجسس لصالح البوكيرك وابدى له في رسائل اخرى ان ملك ملقا يجري الاستعدادات باقصى سرعة وان الكوجراتيين في ملقا يعملون ليل نهار لانهاء الاستحكامات والتحصينات، وانهم يوجهون الامور على نحو اساسي حتى لايكون للبرتغاليين موطئ قدم في ملقا وانه إذا تقرر مهاجمة المدينة فانه يجب ان يكون باقصى سرعة وانه يعلم علم اليقين ان ملك ملقا لن يعيد اليه البرتغاليين الا إذا تم اجباره على ذلك، وانه يستعرض عددا كبيرا من الجنود المرتزقة، وانه لايفكر في شيء اقل من الاستيلاء على الاسطول البرتغالي. وضمن هذا السياق يتفق دي اورجو بالرأي مع بقية القبطانة المرافقين للبوكيرك، بأن الهدف من تمديد ملك ملقا المفاوضات لم يكن سوى اقامة التحصينات واتخاذ الاستعدادات(السجل الكامل لاعمال افونسو دالبوكيرك،٢٠٠٠).

وعلى صعيد ذي صلة أوضح دي أورجو ان التجار المسلمين في ملقا الذين ينتمون لاجناس عدة (كوجراتيون، بقايا مماليك مصر، الاتراك، الخراسانيين ويعني بهم الفرس) كلهم يعارضون الحل السلمي المتضمن على اقامة البرتغاليين قاعدة لهم في ملقا. وأكد دي ارجو ان هؤلاء المسلمين اقنعوا السلطان محمود بأن البوكيرك لن يجسر على مهاجمة المدينة ونصحوه بعدم توقيع اتفاق سلام وان لايكون للبرتغاليين أي مستقر على البر وان تجار كوجرات عرضوا عليه المساعدة بستمائة مقاتل مسلحين تسليحا جيدا واربعين مدفعا. واضافة لكل هذه الخطط التي اشترك فيها سلطان ملقا بمساعدة المسلمين سواء منهم من كان من اهل البلاد أم كان وافدا عليها، اكد روي دي اروجو مجددا ان تلك الاستحكامات اوشكت على الانتهاء وان رجال الدين المسلمين يحرضون على قتال البرتغاليين، وان ملك ملقا سيندم ان سمح لهم بالقدوم إلى المدينة . كما اكد دي اروجو على دور الكوجراتيين في تحريض السلطان وبين ان شاهبندر الكوجراتين وهو عمدة كل تجار كمبايا والذي كان يحظى بثقة كبيرة لدى السلطان ذهب إلى السلطان ورجاه شديد الرجاء الا يدخل في صداقة مع البرتغاليين ولا يعقد معهم أي اتفاق سلام إذ لايمكن لسفنهم وسفن المسلمين ان تبحر في مسار واحد ولا يمكن ان تحمل بسفن المسلمين حمولات من الميناء نفسه الذي تحمل منه السفن البرتغالية وذلك ليس من قبيل المنافسة فحسب وانما لان البرتغاليين يحملون نوايا سيئة تجاه ملقا وليس ذلك فحسب وانما هم راغبون في تدمير المسلمين ويعملون على افناء كل مسلم . واوضح الشاهبندر انه قدم هذه النصيحة لرغبته الشديدة في خدمته وحفظ مملكته وان على الملك ان يماطل البرتغاليين وان يطيل امد المفاوضات معهم حتى يحل موسم الرياح الموسمية وحينها فانه لا يمكنهم الا المغادرة. وقد اقتنع السلطان محمود بهذه المشورة واتفقوا جميعهم على تطبيق هذه السياسة(John,1853).

وفي تلك الاثناء حاولت بعض المراكب التجارية الراسية في ميناء ملقا الهروب بعيدا عن المدينة غير ان البوكيرك امر بمحاصرتها واحضار قباطنتها وأعطى الامان للتجار، ولاسيما الصينيين. وفي ٢٥ تموز ١٥١١ وقع الهجوم الاول على ملقا وانطوت خطة الهجوم الاول على محاولة الاستيلاء على الجسر المقام على النهر الذي يشكل اهمية استراتيجية فهو الموصل بين شقي المدينة إذ ان الاستيلاء على هذا الجسر كان من شأنه شق القوات المدافعة عن المدينة إلى شقين وبالتالي فإنه يمنع التعاون والتنسيق فيما بينها . وبعد مقاومة عنيفة ابدتها ملقا تمكن البرتغاليون من الاستيلاء على الجسر غير انهم لم يكونوا يمتلكون قوات كافية تمكنهم من تعزيز انتصارهم الاول. وبناءا على اوامر البوكيرك نزل ٢٠٠ رجل من السفن واقتربوا من المدينة واضرموا النار بالمنازل الساحلية ثم امتدت النيران بفعل الرياح في اجزاء واسعة من المدينة واحترقت بعض المخازن التي احتوت على بضائع باهضة الثمن، ونتيجة لذلك اصيب السكان بالذعر

مجلة كامبريدج للبحوث العلمية: مجلة علمية محكمة
تصدر عن مركز كامبريدج للبحوث والمؤتمرات–العدد الثامن الاربعون – آب ٢٠٢٥– صفر ١٤٤٧
ISSN–2536–0027

وتوقعوا حدوث دمارا شاملا للمدينة واندفعوا إلى القصر وطالبوا السلطان محمود بضرورة الموافقة على مطالب البرتغاليين. ويبدو انه تخوف مما قد يؤول اليه هذا الوضع من نتائج فاطلق سراح الاسرى وعندئذ سمح جنود البوكيرك للسكان باطفاء الحريق. واقترح السلطان ان يلتزم البرتغاليين بالمعاهدة، فوافق البوكيرك بعد ان طرح جملة بنود ضمنها للمعاهدة منها الموافقة على بناء قلعة كبيرة ومحصنة لحماية البرتغاليين وان يدفع السلطان محمود تعويضا عن الخسائر التي تكبدتها حملة ديسكويرا وان يتحمل نفقات الحملة التي قادها البوكيرك نفسه والتي انطلقت نتيجة ما وصفه بخيانة السلطان محمود. وبازاء ذلك جمع الملك مستشاريه الذين غلبت عليهم مشاعر الغضب والخوف من مما آل اليه الوضع فانقسمت ارائهم بين الاذعان لمطالب البوكيرك بوصفها الحل الوحيد الذي يوفر الامان وبين اولئك الذين رغبوا بمواجهة القادمين الغرباء. وتزعم الفريق الاول اميران شابان الاول من باني والاخر من جوهور ويدعى علاء الدين، وكان هذا الرأي ضد ارادة السلطان إلى حد ما فارسلوا الرد برفض الشروط إلى البوكيرك الذي قرر مهاجمة المدينة(John,1853;Winsted,1966).

وقع الهجوم الثاني في العاشر من اب١٥١١ واستولى فيه البرتغاليون مرة اخرى على الجسر ونجحوا هذه المرة في الاحتفاظ به بينما استمرت المدفعية بقصف المدينة، وبعد اسبوعين تقريبا بدأت المرحلة الثالثة من المعركة وكان الهجوم النهائي في ٢٤ آب ناجحا بشكل سريع جدا، ولاسيما مع ضعف معنويات المدافعين، وفي مساء اليوم نفسه تم الاستيلاء على مدينة ملقا(Ryan,1968)، ونهبت على نحو تام من قبل البرتغاليين وتم الاستيلاء على ثلاثة الاف قطعة من المدفعية، وذبح سكان المدينة المسلمين واستثنيت من ذلك قوات المرتزقة من الجافيين(نسبة إلى جزيرة جافا) ودخل البيجوس والهندوس والصينيون إلى جانب البرتغاليين المنتصرين وعوملوا بسخاء وهرب السلطان محمود إلى جزيرة بهانج المجاورة. واستولى البرتغاليون على ثروات ضخمة حتى بلغت حصة المملكة من هذه الغنيمة ٢٠٠.٠٠٠ قطعة نقدية ذهبية واستولوا على كميات كبيرة من التوابل. لقد اثبت هذا الانتصار تفوق اسلحة البرتغاليين رغم قلة عددهم قياسا بجنود ملقا الذين قدر عددهم بـ ٣٠.٠٠٠ جندي مزودين بالمدافع (Cady,1964). وهكذا دخلت شبه جزيرة الملايو ضمن السيطرة البرتغالية واصبحت ملقا مهد وعاصمة الامبراطورية البرتغالية في الشرق الاقصى، وعقب هذا الانتصار وصف البوكيرك بـ **"الفاتح الاعظم والاحكم لعصره"**(John,1853).

وعلى نحو عام وقف وراء سقوط ملقا عوامل عدة يمكن تحديدها بما هو آت:

-كانت استعدادات المدينة غير كافية ولم يتخذ السلطان حذره على نحو يجاري خطورة الوضع . فضلا عن تأخره في طلب المساعدة من الحكومة الصينية، وربما كان مدركا بعدم جدوى ذلك، ولاسيما بعد أن فشلت الصين في تقديم المساعدة للتابع تشامبا في عام ١٤٧١ فضلا عن ضعف اهتمام اسرة المينج بجنوب شرقي اسيا في تلك الاثناء. وحتى الاستعدادات الاولية يبدو انها اتخذت من قبل فريق من التجار المسلمين الكوجاراتين الذين جلبوا ٦٠٠ جندي تركي مرتزق. وجهزوا بعدد كبير من المدافع والفتيل، في حين كانت معظم أسلحة المقاتلين الملايويون البالغ عددهم عشرين الف مقاتل تتكون من بنادق النفخ والرماح المسمومة. بينما قدم الصينيون من سكان ملقا دعمهم للبرتغاليين حتى ان احدى السفن التي استخدمت في الهجوم الثاني في الاستيلاء على الجسر زودهم بها الصينيون الذين اسهموا أيضاً في نقل احد المبشرين البرتغاليين ويدعى دورت فرديناتدس إلى اشيا(Cady,1964). ولعل ما يفسر موقف التجار الصينيين السلبي انهم كانوا قد تلقوا معاملة وصفت بأنها غير عادلة من سلطان، وهذا ما جعلهم يقدمون المساعدة للبرتغاليين الذين أبدوا استعدادهم لمساعدة التجار الصينيين ومنحهم الحماية.

مجلة كامبريدج للبحوث العلمية: مجلة علمية محكمة
تصدر عن مركز كامبريدج للبحوث والمؤتمرات–العدد الثامن الاربعون – آب ٢٠٢٥– صفر ١٤٤٧
ISSN–2536–0027

-توقع السلطان دعما شعبيا في المدينة ولاسيما من قبل التجار وقد بنى هذا التوقع على حثهم له بمنع اقامة قاعدة للبرتغاليين في ملقا فضلا عن انه اراد ابقاء التجار مصدر ثروته في ملقا ولكن رغم كثرة عدد التجار الا انهم انقسموا الى فريقين؛ التجار المسلمين الذين ايدوا السلطان، والتجار غير المسلمين ولاسيما الصينيون والهنود(الهندوس) الذين استاءوا من الوضع المتميز الذي كان يتمتع به التجار المسلمين، ومن الضرائب المفروضة عليهم من قبل سلطات ملقا وكانوا يتأملون نصرا برتغاليا، لكنهم حينما رأوا حجم قوة البوكيرك لم يتوقعوا انتصارا برتغاليا لذلك تراوحت مواقف هؤلاء التجار بين المؤيد والمعارض لسلطنة ملقا.

-تألف القسم الاكبر من قوات ملقا من المرتزقة الجافايين لان ملقا مثل العديد من الامبراطوريات الاخرى اعتمدت على الاجانب في الدفاع عن نفسها ومثل معظم المرتزقة المحاربين لاجل المال وليس الولاء لم تكن نية الجافايين ان يقتلوا لاجل سلطنة على وشك ان تهزم وكان هذا كاف لضمان انتصار البرتغال.

-زادت التعددية العرقية لسكان ملقا من ضعفها إذ لم يكن اغلبية السكان يرغبون بالوضع المتميز لطبقة الملايويون الحاكمة لذلك كان الحشد الشعبي للسلطان ضئيلا(Ryan,1968)

-ان اعدام السلطان للباندهار تون مطهر في تلك المرحلة افقده قائد مقتدر فضلا عن زعزعة الاستقرار الداخلي لملقا إذ احيا بقتله الصراع التقليدي بين التاميل والملايويون.

-خيانة قائد قوات جافا للسلطان فبعد ان ابدى استعداده للدفاع عن ملقا بكل طاقاته تفاوض مع البرتغاليين سرا لضمان سلامته ولم يكن جنوده اقل اندفاعا منه في ضمان سلامتهم(John,1853).

- استند البرتغاليون في تنفيذ سياستهم تلك الى ان سفنهم كانت اكثر تفوقا من نظيراتها العربية والاسلامية والهندية فمن حيث الصنع استخدمت السفن البرتغالية المسامير في حين خاط العرب هياكل سفنهم. كما ان المدافع البرتغالية كانت ذات مدى اطول واكثر دقة وافضل تجهيزاً بالرجال وكانت طواقم السفن البرتغالية متمرسة في الملاحة خارج الايقاع الفصلي السهل للرياح الموسمية. ويضاف الى ذلك أن البرتغاليين كانوا قوميين متحمسين فضلا عن حبهم للقتال من خلال الاحساس بمهمة قوية ضد المسلمين ومن جشع لاحد له نتيجة المحنة والفقر في بلادهم ذات الموارد المحدودة فكان عليهم والحال هذا الانتصار ان رغبوا بالبقاء احياء(Cady,1964).

خامسا: جوهور خليفة ملقا

اتجه السلطان محمود بعد هروبه من ملقا نحو بهانج أو ما تعرف الان ببيكان، ومن هناك ارسل بطلب المساعدة من امبراطور الصين لاسترداد عرشه غير ان الرد جاء مخيبا لامله بدعوى انشغال امبراطور الصين بمقاتلة التتار، ولم يقدم له أي مساعدة(Hall,1955; Ryan,1968) . ويبدو ان هذا الموقف جاء مبنيا على الصورة الحسنة التي نقلها التجار الصينيون الذين كانوا في ملقا وقت الهجوم البرتغالي على ملقا وانعكس هذا الامر بدوره على الاستقبال الحسن الذي وجده البرتغاليون في الصين[٢]، لذلك لم يتلق السلطان محمود أي مساعدة من الصين في ذلك الحين واضطر إلى الاعتماد على موارده الخاصة، وبوصفه ما يزال حاكما على كل شبه جزيرة الملايو اسميا اصبح بحاجة إلى عاصمة جديدة فتنقل بين بهانج وجزر اخرى عند اعالي رافد جوهور غير ان هذا الموقع كان بعيدا عن طرق التجارة(Ryan,1968). لذا قرر في عام ١٥١٣ التوجه نحو بينتان وهي جزيرة تقع جنوب سنغافورة وهناك اعاد تأسيس بلاط ملقا ومنها اجرى محاولات عدة لاسترداد ملقا من السيطرة البرتغالية، ثم اصبحت جوهور خليفة لامبراطورية ملقا وحكمت من السلطان محمود واسلافه، ومن الضرورة بمكان الاشارة الى انه على وفق مفهوم الدولة في سلطنات الملايو(ملقا واتشيه) يقوم على استمرارية السلطة على المدى الطويل، حيث تم إضفاء الشرعية على السيادة

مجلة كامبريدج للبحوث العلمية: مجلة علمية محكمة
تصدر عن مركز كامبريدج للبحوث والمؤتمرات–العدد الثامن الاربعون – آب ٢٠٢٥– صفر ١٤٤٧
ISSN–2536–0027

كإرث من صلة أسرية قديمة، وحلقة في سلسلة سياسية ذات اصول بعيدة، قد تكون أسطورية في أصلها. وكانت الحالة الأوضح هي سلطنة ملقا-جوهور، التي ادعت أنها الوريث المباشر لإمبراطورية سري فيجايا، مُشكِلةً بذلك سلسلة متصلة تنقل السلطة الملكية. كما كانت الدولة عاملا مهما في التماسك الاجتماعي المحيط بشخصية السلطان، وفي حالة ملقا-جوهور، كان هذا هو العنصر الذي، على الرغم من كل التقلبات المتنوعة، ضمن استمرار شبكة الولاءات التي دعمت المملكة(Pinto,2012).

وخلال فترة حكم السلطان محمود واسلافه في جوهور استمرت محاولات طرد البرتغاليين من ملقا ففي الاعوام ١٥١٥ و١٥١٦ و١٥١٩ و١٥٢٤ شنت هجمات متكررة ضد البرتغاليين في ملقا وفرضت حصارا على ملقا حتى وصلت المدينة حافة المجاعة بسبب الحصار، الامر الذي وضع البرتغاليين في محنة كبيرة ، ولاسيما ان المدينة كانت تقتات على غذاء مستورد فقد تأمل السلطان ان يجوع البرتغاليين ويدفعهم للاستسلام لانه كان مستحيلا الاستيلاء على قلعة فيموسا لقوة تحصيناتها(Ryan,1968; Hall,1955).

كادت سياسة الحصار ان تنجح في عام ١٥٢٤ لدرجة ان البرتغاليين قرروا ان يهاجموا العاصمة الجديدة بينتان فارسلوا في عام ١٥٢٦ اسطولا تمكن من تدميرها واجبر السلطان على نقل مقره إلى كامبار في سومطرة حيث توفي هناك في عام ١٥٢٨، ولم ينجح السلطان في الاستيلاء على ملقا لكنه الحق اضرارا بتجارتها(Ryan,1968).

وبعد وفاة السلطان محمود حدثت انقسامات في مملكته حول العرش، بين ابنه الاكبر راجا المودا وابنه الاصغر، الذي كان قد حظي بدعم البانداهار تون مطهر قبل اعدامه، إذ اجبر راجا المودا واتباعه على مغادرة كامبار باتجاه سياك ومن ثم إلى كلانغ وفيها التقى بتجار اشاروا عليه بامكانية تأسيس بلاطه على ضفاف نهر بيراك، وفي ضوء ذلك أسس عاصمة ولايته الجديدة في منتصف امتدادات النهر، وشكل سلالة جديدة منفصلة في بيراك، وتلقب بالسلطان مظفر شاه وذلك في حدود عام ١٥٢٩. في حين اتخذ اخوه الاصغر والذي كانت والدته ابنة البانداهار تون مطهر لقب السلطان علاء الدين واعاد عاصمة ولايته في جوهور في الثلاثينات من القرن السادس عشر، وفي الاربعينات عندما اصبح الوضع اكثر استقرار نقل السلطان علاء الدين العاصمة إلى اسفل نهر جوهور ومن هناك حاول مواصلة القتال ضد تجار ملقا والشحن، وفي عام ١٥٣٣ شنت جوهور هجوما فعليا اخر على ملقا نفسها لكن دون نجاح لانه كان من الصعب الاستيلاء على ملقا وقد اكسب اتخاذ السلطان محمود وسلالته من جوهور ذات الاهمية الاستراتيجية مقرا جديد للسلطة، عداء البرتغاليين وكرههم(Ryan,1968; Hall,1955).

سادسا: الادارة البرتغالية في ملقا

١-إدارة المدينة

بادر البرتغاليون فور احتلالهم ملقا الى تأسيس قاعدة لهم فيها وتحويلها الى مدينة قلعة، مثلت الانموذج الاول لمركز الحكم الاوربي في جنوب شرقي اسيا(Harrison,1954). فاستنادا الى وجهة نظر البوكيرك بأن تجارة البرتغاليين يجب ان تعتمد على تأسيس قواعد مناسبة على طول طرق التجارة (Ryan,1968). وللمباشرة ببناء القلعة، وبسبب انتشار الحمى والديزانتري في صفوفهم، استعان البرتغاليون بفرق الجاويين(الجافانيين) وجمعوا ١٥٠٠ نسمة من عبيد السلطان محمود وشرعوا ببناء القلعة على الضفة اليسرى من مدخل نهر ملقا. ودمروا احد مساجد المسلمين وبعض اضرحة سلاطين ملقا السابقين للحصول على الحجر لاتمام بنائها وانشأوا فيها برجا يتكون من اربع طوابق. وبلغ سمك جدارن القلعة ثمانية اقدام واطلق عليها اسم(فايموسا). وسهل وقوعها عند مدخل النهر مسألة نقل الامدادات للبرتغاليين عبر المضائق في اوقات الحصار كما ان ارتفاعها الكبير كان من شأنه ان يمكنهم من مواجهة الهجمات المتوقعة من التل

مجلة كامبريدج للبحوث العلمية: مجلة علمية محكمة
تصدر عن مركز كامبريدج للبحوث والمؤتمرات–العدد الثامن الاربعون – آب ٢٠٢٥– صفر ١٤٤٧
ISSN–2536–0027

الواقع وراء السور الشرقي. عاش البرتغاليون داخل الاسوار واحيط الجزء الاخر من مدينة ملقا الواقع على الضفة اليمنى للنهر بحاجز طويل من الاعمدة الخشبية والتراب وزود بحامية محدودة للدفاع عنه ضد هجمات السكان المحليين واكتمل العمل ببرج القلعة والسور خلال شهر واحد وذلك بعد جهد شاق ومضني(Cady,1964). وفي وداخل السور بنى البرتغاليون كاتدرائية وثلاث كنائس ومستشفيات ومدرسة ملحقة باحدى الكنائس(Ryan,1968). وبثوا الرعب في صفوف السكان الوثنيين والمسلمين بالمدافع والبنادق وتفاجأ السكان بالطقوس الدينية لحاكامهم الجدد(John,1853).

وفي سياق أداري عمد البوكيرك الى وضع اسس ادارة محلية حددت شكل الحكومة الجديدة، وذلك قبل مغادرته ملقا باتجاه غوا عام ١٥١٢. وبموجب التنظيمات الجديدة أصبح على رأس السلطة البرتغالية في ملقا حاكمام تعيينه من قبل ملك البرتغال على نحو مباشر، وله نفوذ واسع ، وتم تحديد مدة حكمه بثلاث سنوات فقط حتى لاتعلو سلطته على حساب سلطة الملك، ويحدد راتبه من قبل حكومة البرتغال أيضاً، واتضح لاحقا ان مستوى راتبه لم يكن يتناسب مع مستوى الارباح التي حققتها تجارة البرتغال في شرقي اسيا آنذاك. والى جانب الحاكم كان هناك مجلس استشاري يتألف من رئيس القضاة، العمدة، والاستقف، ويترأس الحاكم العام كل القوات الملحية في مدينة ملقا ويتم تعينيه من قبل نائب الملك في غوا، وبذلك أقام البرتغاليون الانموذج الاول لمركز الحكم الاوربي في جنوب شرقي اسيا . أمّا مناصب حكومة ملقا الثلاث (الباندهار، تيمينغونغ، والشاهبندر) فبقيت قائمة وشغلها سكان ملقا والتجار، يتمتع الباندهار بالسلطة القضائية الفعلية على الاجانب الذين كانوا يأتون لملقا، أمّا التمينغونغ فكان مسؤولا عن التعامل مع التجار الملايويون الذين يأتون إلى ملقا لغرض التجارة، أمّا الشاهبندر فكان يستقبل المبعوثين أو الزوار الذين يأتون للمدينة وتحت قيادتهم رجالا تم اختيارهم لخدمة مصالح شعبهم وهم يمثلون الزعماء ويمثلون شعبهم. ومن الجدير بالذكر ان البرتغاليين في ملقا كانوا موظفين مدنيين للملك وليس مستخدمين أو موظفين لشركة تجارية مثل الهولنديين الذين جاءوا لاحقا ولكنهم شاركوا بالتجارة وجنوا ارباحا منها وليس من رواتبهم ولم يكن هناك في ملقا عددا كبيرا من البرتغاليين إذ وصل الحد الاقصى لهم إلى ٦٠٠ رجل فقط(Ryan,1968).

ولاعادة تنشيط العمل التجاري بادر البرتغاليون بملأ ذلك الفراغ التجاري الكبير في تجارة التوابل الذي نتج عن طردهم التجار المسلمين(Cady,1964). فأستدعوا كل التجار من غير المسلمين الذين كان قد ابعدهم الخوف عن المدينة ولاسيما الهنود والجاويين والذين لم يكونوا مؤيدين لسلطان ملقا، وقدموا لهم وعودا بأجراء تسهيلات في التعامل معهم(John,1853) .

وأثباتا للهيبة والوجود وتنشيط العمل التجاري أمر البوكيرك في اواخر عام١٥١١ بأنشاء دار لسك العملة، فقبل وصول البرتغاليين، لم تُسكّ في ملقا عملات معدنية ثمينة، وكانت معظم المعاملات تتم عبر تبادل السلع البسيط، إلا أن أسواق كامباي وهرمز وباساي زوّدت ملقا بالعملات الذهبية، فضلا عن عملات فضية أجنبية متداولة، وبحسب ما أشار اليه بيريز، كانت العملات المعدنية الوحيدة التي سكّتها سلطنة ملقا هي عملات معدنية صغيرة من القصدير سميت "كايشاس" (وهو اسم مشتق من عملة برونزية صينية صغيرة)، صُدّرت للمعاملات منخفضة القيمة، وفئة أعلى تُسمى "كاليم"، تُعادل ١٠٠ كايشاس. وتم سحب جميع هذه العملات وإلغاء تداولها، وأُصدرت عملات جديدة حملت رموز السلطة الجديدة، وضمت ثلاث فئات من القصدير: الباستاردو، وتعادل ٦٠ ريالاً برتغالياً (الريال هو العملة النقدية البرتغالية آنذاك)؛ والسولدو، وتعادل عُشر الباستاردو أو ٦ ريالات؛ والدينهييرو، وتعادل عُشر السولدو أو ٠.٦ ريال. وهذه الفئات كانت تنطبق مع الفئات المستخدمة بالفعل في الهند البرتغالية. وكانت العملة الجديدة مهمة لدعم المعاملات التجارية والإدارة

مجلة كامبريدج للبحوث العلمية: مجلة علمية محكمة
تصدر عن مركز كامبريدج للبحوث والمؤتمرات–العدد الثامن الاربعون – آب ٢٠٢٥– صفر ١٤٤٧
ISSN–2536–0027

المحلية الجديدة، كما كانت رمزا للسيادة والقوة والهيبة. وواصلت دار سك العملة في ملقا إنتاج عملات القصدير خلال عهدي الملك جواو الثالث (حكم ١٥٢١-١٥٥٧) والملك سيباستياو الأول (حكم ١٥٥٧-١٥٧٨). ومن المرجح أن هذه العملات المعدنية ظلت متداولة لعدة عقود بعد أن فقدت البرتغال استقلالها لصالح إسبانيا عام ١٥٨٠. ولا يُعرف الكثير عن إنتاج دار سك العملة المعدنية خلال تلك الفترة. (Lousã And João Pedro Vieira,2021)

وفضلا عما تقدم اقتضى تنشيط العمل التجاري توفير بيئة آمنة للعمل للبرتغاليين ومعاملة السكان المحليين والتجار الجاويين والصينيين والهنود والمور الذين جاءوا إلى هناك بشكل جيد للغاية، لأنهم لم يرغبوا في تراجع التجارة؛ لكنهم واجهوا منذ البداية قدرا كبيرا من المعارضة من كل من سلطان ملقا السلطان محمود شاه وغيره من الحكام المسلمين. وقد هدف البرتغاليون من تلك السياسة تحقيق ادارة سلسلة لملقا لضمان استمرارها مركزا للتجارة في ارخبيل الملايو ومع ذلك فان التجارة لاتعتمد توفير التسهيلات فقط ، فهي صفقة ثنائية أو متبادلة لابد ان يكون هناك أولئك الذين يبيعون واولئك الذين يشترون. بيد إن سياسة البرتغاليين في محاولة فرض سيطرة تامة على التجارة كان من شأنه أبعاد الآخرين الذين ارادوا تقاسم ارباح وفوائد هذه التجارة معهم، اضافة إلى ذلك اوصلتهم الحماسة الدينية إلى نزاع مستمر مع السكان المسلمين في دول المناطق المجاورة(Ryan,1968). وقد حد ذلك كله من قيمة ارباح تجارتهم في ملقا.

اضافة لما تقدم ان اجراءات البرتغاليين في محاولة تنصير المنطقة كانت عاملاً مهما في اعاقة تطور التجارة، إذ ان أغلبية المبشرين الذين جاءوا إلى اسيا في ذلك الحين كانوا برتغاليين واشهرهم اس. تي. فرانسيس كزافييه الذي كان يعيش في ملقا وقت هجوم اتشيا على المدينة في حدود عام١٥٤٧ ، وكما هو الحال مع العديد من المبشرين تصادم كزافييه في اغلب الاحيان مع السلطات المدنية البرتغالية التي كانت مهتمة بتحقيق ارباح التجارة اكثر من اهتمامها بالنشاطات التبشيرية وتعارضت رغبة التجار بتحقيق الارباح الكبيرة مع دور رجال الدين(John,1853) .

وقد أدرك البرتغاليون منذ وقت مبكر ان اقامة المؤسسات من الموظفين والجنود لاتتناسب مع مواردهم البشرية المحدودة، فاتجهوا كما في غوا نحو تشجيع المقيمين البرتغاليين في ملقا على الزواج من النساء المحليات، وايجاد جيل جديد من المنحدرين من أصول أوربية وآسيوية الذين ترتبطهم روابط المصلحة والدم بمصير البرتغاليين، ويعتبرون ملقا موطنهم الحقيقي في الوقت نفسه (Harrison,1954)،الا ان نسبة نجاح ذلك في بادئ الامر كانت اقل مما في غوا إذ ان العديد منهم كانت اقامتهم في ملقا عابرة ولم يكن في ملقا نساء هنديات من طبقة راقية في المجتمع كما في غوا، اضف إلى ذلك ان اعداد البرتغاليين انفسهم في ملقا لم تكن تزيد في اغلب الاحيان عن ٦٠٠ رجل وشب كل الاولاد المنحدرون من اصل برتغالي سواء كان شرعي أم غير شرعي كمسيحيين ووصل العدد الكلي إلى حوالي ٤٧ شخصا. وبلغ عدد الكنائس التي بنيت داخل المدينة وعلى مقربة منها خمس كنائس. وكان النشاط التبشيري خارج حد المنحدرون من اصل برتغالي قد تضائل فعليا لاسباب تتعلق بالحالة المربكة للسكان ومقاومة المسلمين وصفة اللامبالاة للماليزيين (John,1853).

وبعد مضي قرن من الاستيلاء على ملقا اصبح في المدينة سبعة الاف واربعمائة نسمة من السكان المسيحيين، يعيشون في الضواحي خارج القلعة الحقيقية، واستمر وجود عدد من الاسرات البرتغالية الملقية الى يومنا هذا، واحتفظوا بعقيدتهم ولهجتهم الخاصة وشخصيتهم كمجتمع. وفي معظم موانئ جنوب شرقي اسيا توجد اسرات قديمة أوربية لها اسماء برتغالية صرفة(Harrison,1954, Lopes,2025).

مجلة كامبريدج للبحوث العلمية: مجلة علمية محكمة
تصدر عن مركز كامبريدج للبحوث والمؤتمرات–العدد الثامن الاربعون – آب ٢٠٢٥– صفر ١٤٤٧
ISSN–2536–0027

وعلى نحو عام فإن نفوذ البرتغاليين باستثناء ملقا بقي ضئيلا في شبه جزيرة الملايو، وجوبهت محاولاتهم بتنصير المنطقة برفض كبير من لدن سكانها وانعكس ذلك على النشاط التجاري ولاسيما مع استبعادهم للتجار المسلمين.

٢-ادارة المضيق، السياسة التجارية، استكشاف الارخبيل

أصبح البرتغاليون منذ احتلالهم ملقا حكاما لأهم مركز تجاري في شرق آسيا؛ وكانت شبكتهم التجارية هي الأوسع في العالم، حيث امتدت من لشبونة إلى جزر الملوكا(تيدور،ماكيان،باشان،امبونيا،باندا)؛ وسرعان ما انتشرت إلى اليابان والصين، واصبحت ملقا هي المركز الشرقي لهذه الشبكة الواسعة. وعلى الرغم من امتلاك البرتغاليين قوة بحرية متفوقة فإن سيطرتهم على المضيق بقيت هشة دائما. فقد كان الملايويون وبقايا مملكة ملقا وسريفجايا يسيطران على جانبي المضيق من خلال البروز السياسي؛ وعلى العكس من ذلك، لم يكن البرتغاليون قادرين على ممارسة أكثر من هيمنة مشتركة، اعتمادا على قوتهم البحرية والتواصل مع القوى المحلية الاخرى(Pinto,2013). فضمن سياق إعادة تنشيط العمل التجاري بعد الاحتلال، عمل البرتغاليون على جذب التجار غير المسلمين واعادة طمأنتهم. فضلا عن ان توجههم لاقامة علاقات ودية مع الولايات التي كانت تابعة لسلطنة ملقا، ولاسيما كامبار،جافا(جاوة)،بروني. ويضاف الى ذلك انهم شرعوا في ارسال بعثات استكشاف لجزر الملوكا وهي المصدر الاساسي للتوابل التي كانت عماد التجارة . ومكنت الاتفاقيات التي وقعها البرتغاليون هناك من احتكار تجارة التوابل وغلقها بوجه الشرق الاوسط(Ryan,1968).

اتبع البرتغاليون في ادارة النشاط التجاري عبر مضيق ملقا ما عرف بنظام**(التجارة القسرية)** اذ أجبروا السفن غير البرتغالية على التوقف في ملقا ودفع الضرائب، وإلى حد كبير جعلوا السفن غير البرتغالية تستخدم ملقا كمركز تجاري لها، على الرغم من أن السفن الأقوى التابعة لدول أخرى كانت تتحداهم في بعض الأحيان بنجاح. وقد كان نظام التجارة الذي اسسه البرتغاليون في اسيا مربحا فمن غوا كانت تؤخذ الاقمشة الهندية ولاسيما القطنية إلى ملقا وهناك كان يتم استبدالها بالتوابل وتشحن أمّا إلى الصين لاستبدالها بالحرير والذهب أو تعاد إلى غوا لتكون جاهزة للشحن إلى اوربا. ومن اسيا إلى اوربا كان البرتغاليون يأخذون البهارات والحرير والخزف التي وصلت جميعها إلى اسعار مرتفعة، فعلى سبيل المثال يمكن ان يباع الفلفل الحار المشترى في الشرق بما يعادل ٤٥ دولار في البرتغال بما يعادل ١٨٠٠ دولار، هكذا كانت الارباح تجنى إلى درجة ان حصة التاج من الارباح كانت اربع اضعاف ايرادات البرتغال الداخلية. وكانت ملقا نفسها مركز تجمع تجارة محلية إذ يؤتى بالفلفل الحار والذهب والعاج والرز من سومطرة، ومن جافا كانت تجلب مواد اخرى مثل الرز والكافور والاقمشة ومن بيراك كان يتم جمع القصدير بينما جيء بالذهب في بعض الاحيان من سيام(Ryan,1968).

كان المضيق بابا لا غنى عنه للبرتغاليين للوصول إلى الشرق الأقصى، وأصبح في أواخر القرن السادس عشر هدفا حيويا لكل من التجار والمبشرين البرتغاليين، ولاسيما مع ظهور المحور التجاري ماكاو-ناجازاكي بشكل واضح باعتباره خط التجارة الأكثر ربحية. ولذلك، كان إبقاء المضيق مفتوحا أمام الملاحة البرتغالية أولوية قصوى. وكانت السلطات البرتغالية تشعر بقلق دائم بشأن التهديدات المحتملة التي يمكن أن تعرض هذا الممر البحري الحيوي للخطر. فمن الناحية النظرية، ادعى البرتغاليون السيطرة العالمية على الملاحة الآسيوية في جميع أنحاء المحيط الهندي، من خلال ما يسمى الكارتازات، وهي سندات الأمان (رخص المرور) التي تصدرها السلطات البرتغالية وكانت تمنح للقوى الصديقة والحلفاء، وتسمح بخطوط تجارية محددة. وأي سفينة تبحر بدون هذه الوثائق كانت معرضة لخطر الاستيلاء عليها. تم تطبيق هذا

مجلة كامبريدج للبحوث العلمية: مجلة علمية محكمة
تصدر عن مركز كامبريدج للبحوث والمؤتمرات–العدد الثامن الاربعون – آب ٢٠٢٥– صفر ١٤٤٧
ISSN–2536–0027

النظام في بحر العرب في وقت مبكر من عام ١٥٠٣، من أجل التمييز بين الأصدقاء والأعداء وحماية هؤلاء من ممارسات القرصنة الشائعة. ومثل هذا النظام أداة سياسية وليست اقتصادية، لأنه كان يهدف بشكل أساسي إلى إدارة العلاقات مع القوى الآسيوية في السنوات الأولى من المنافسة بين طريق كيب وطريق المشرق التقليدي. وفي مضيق ملقا وجنوب شرق آسيا، كان استخدامه محدودًا للغاية. وقد صدرت مثل هذه التفويضات من قبل سلطات ملقا وفقا لتقديرها الخاص ولما تعده من المصالح العامة للمدينة. على سبيل المثال، في عام ١٥٢١، أعطى الحاكم جورج دي ألبوكيرك كارتازات للعديد من التجار في موانئ كورومانديل لإقناعهم بالذهاب إلى ملقا. لاحقا، تضمن هذا النوع من سندات الأمان بندا رئيسيا، وهو منع مرور الاشيين(نسبة لاشيا)، الذين اعتبروا أعداء ملقا البتغالية. وعلى نحو عام ومن الناحية العملية، لم يتم فرض الحكم البرتغالي على المضيق على القوى المجاورة كاستراتيجية رسمية، ولكن بطريقة غير رسمية، ولاسيما على المجتمعات التجارية الآسيوية التي استخدمت ملقا تقليديًا كميناء توقف. وقد اتخذ ذلك شكل أساطيل الدوريات البرتغالية التي طمأنت سلامة المرور إلى كل من الملاحة البرتغالية والآسيوية، ولكنها استخدمت أيضا لإجبار السفن التجارية على الذهاب إلى ملقا بدلاً من الموانئ المجاورة والمنافسة الأخرى، وهوتجسيد لما أُطلق عليه **"التجارة القسرية"** التي أصبحت شائعة في أواخر القرن السادس عشر، وأدت الى اضعاف قدرة ملقا على جذب التجار الآسيويين. أصبح الأمر بالغ الأهمية عندما استولى قادة القلعة تدريجيًا على أهم خطوط التجارة المرتبطة بملقا وارتكبوا عمليات ابتزاز متكررة، وطالبوا بحقوق حصرية وفرضوا أسعارا وشروطا مواتية لهم في شراء وبيع السلع(Pinto,2013). ولد هذا النظام شعورا معاديا للبرتغاليين وعاملا مهما في تقليص حجم السفن المارة عبر مضيق ملقا واخذت السفن تبحث عن طرق جديدة عبر جوهور واتشيا وكان من نتيجة ذلك ان هبطت ايرادات تجارة ملقا بشكل سريع ولم يشجع ادخال قانون عام ١٥٤٤ الذي قضى بفرض رسما ثابتا ٦% على كل السلع، على استخدام الميناء بصورة اكبر(Ryan,1968). وتعد الشكاوى حول تلك الأعمال الاستبدادية من قبل النقباء وتناقص عدد التجار الآسيويين في المدينة شائعة في جميع الوثائق البرتغالية والمصادر المشتركة الأخرى. وضمن هذا السياق يطالعنا التجار الصينيون (من فوجيان)، الذين أبعدوا أنفسهم تدريجيا عن ملقا، ليس فقط لأنه كان لديهم موانئ أكثر ملاءمة تحت تصرفهم، مثل بانتن، ولكن أيضًا بسبب عمليات الابتزاز التي مارسها الحكام البرتغاليين، وهو الأمر الذي ترددت أصداؤه في سجلات أسرة مينغ الصينية الرسمية(Pinto,2013). ومع ذلك فإن ما اسهم في استمرار ازدهار ميناء ملقا هو بدء التجارة مع اليابان عام١٥٤٣ والاستيلاء على ماكاو عام ١٥٥٧ وظهور المحور التجاري ماكاو-ناجازاكي بشكل واضح باعتباره خط التجارة الأكثر ربحية، فاصبحت ملقا اكثر اهمية كنقطة ستراتيجية لحراسة وحماية الطريق البحري إلى الشرق الاقصى(Ryan,1968).

وعلى صعيد آخر حاول البرتغاليون ترسيخ وجودهم في الأرخبيل لتوسيع تجارتهم وإبعاد المنافسين، وكانوا مهتمين بشكل خاص بجزر الملوكا، التي تأتي منها التوابل الأكثر قيمة والتي كانت تعرف باسم جزر التوابل. ففي عام ١٥١٣ بدأوا التجارة مع تيرنات وتيدور، في جزر الملوكا؛ لكن سلاطين هاتين الدولتين كانا متنافسين، وانخرط البرتغاليون في نزاعاتهما، حتى اصبح وضعهم في جزر التوابل محفوفًا بالمخاطر في كثير من الأحيان. ومع ذلك، فقد احتفظوا بحصن في تيرنات وآخر في جزيرة أمبونيا، التابعة لتيرنات. وقد أدى إنشاء تجارتهم في جزر التوابل إلى صراع مع الإسبان إذ كان لهم مركز تجاري في تيدور لبعض الوقت، وتمكن البرتغاليون من طردهم عام١٥٢٧. وعلى الرغم من ذلك، وبموجب معاهدة سرقسطة عام ١٥٢٩، تخلت الحكومة الإسبانية عن جميع مطالباتها بجزر ملوكا، الا ان الإسبان في جنوب شرق آسيا

مجلة كامبريدج للبحوث العلمية: مجلة علمية محكمة
تصدر عن مركز كامبريدج للبحوث والمؤتمرات–العدد الثامن الاربعون – آب ٢٠٢٥– صفر ١٤٤٧
ISSN–2536–0027

ترددوا في التخلي عن خططهم، واستمرت الصراعات المسلحة بين البرتغاليين والأسبان حتى فازوا بالنصر الكامل في ١٥٣٤وركز الإسبان بعد ذلك اهتمامهم على جزر الفلبين(Pearn,1963).

وعلى صعيد ذي صلة استمر البرتغاليون باستكشاف جزر ارخبيل الملايو فوصلت سفنهم إلى بورنيو في ١٥٢٤، وسيليبس وغينيا الجديدة في ١٥٢٥-٢٦، وتيمور في ١٥٣٢. فضلا عن المحطات التجارية في تيرنات، وتيدور، وأمبوينا، وجزر الملوكا؛ ومنها اخذوا يتاجرون مع ريف البر الرئيسي لشبه جزيرة الملايو، كما اصبح لهم مراكز تجارية في أيوثيا وكمبوديا وعلى ساحل تيناسيريم. لكن حكام ممالك البر الرئيسي لشبه الجزيرة كانوا أقوياء جدا بالنسبة للبرتغاليين لذا فأنهم لم يتمكنوا من القيام بأكثر من التجارة، ولم يتمكنوا من الاحتفاظ بالحصون والموانئ كما فعلوا في ملقا والأرخبيل الملايوي. وبمرور الوقت اصبحت التجارة بين الصين والغرب في متناول أيديهم إلى حد كبير، كما وجد العديد من البرتغاليين عملاً كمرتزقة في جيوش ملوك جنوب شرق آسيا(Pearn,1963).

وقد حققت الإستراتيجية البرتغالية نجاحا تجاريا كبيرا لبعض الوقت، إذ حلت محل التجار المسلمين كموردين للتوابل إلى أوروبا. فعلى سبيل المثال، في العقد الأخير من القرن الخامس عشر، قام التجار المسلمين، الذين كانوا يفتقرون إلى أي منافسة، بتزويد أوروبا بـ ٥٠ طنا من القرنفل، ولكن خلال القرن السادس عشر، تم شحن ٥٧٣ طنا إلى أوروبا من قبل البرتغاليين مقارنة بـ ١٧٠ طنا فقط من قبل التجار المسلمين. ومع ذلك، على الرغم من نجاحاتهم الأولية، كان البرتغاليون يفتقرون إلى السفن والرجال لتحقيق طموحاتهم العظيمة، لكن هذا لا يعني أن جهودهم لم تكن ذات تأثير كبير، فقد أدى استيلائهم على ملقا إلى ترك المنطقة دون قوة محلية مهيمنة، مما أنهى النمط التاريخي للأمبراطوريات التجارية (سريفيجايا، ماجاباهيت، ملقا) الذي لم يتكرر منذ ذلك الحين. اذ أثبت البرتغاليون عدم قدرتهم على شغل مكانة ملقا، وانقسمت السلطة في المنطقة فعليا بين العديد من الامارات والممالك، وهي حالة استمرت حتى وصلت دولة جزر الهند الهولندية الاستعمارية إلى الهيمنة الإقليمية في أواخر القرن السابع عشر. كما تعطلت التجارة بشكل خطير بسبب الإجراءات البرتغالية لعقود من الزمن، وتغيرت أنماطها مع تجاوز التجار للموانئ التي تسيطر عليها البرتغال. واغتنمت بعض دول الميناء البديلة، مثل جوهور وآتشيه الناشئة، الفرصة لتصبح قوى مهمة. وبعد أن حاول البرتغاليون ترسيخ أنفسهم كقوة مهيمنة في المنطقة وفشلوا، تحولوا فعلياً إلى مجرد مشارك قوي آخر في الشؤون الإقليمية، وعملوا إلى حد كبير وفقاً للقواعد المحلية الراسخة (Drakeley,2005).

سابعا: التوازنات الاقليمية في مضيق ملقا في النصف الاول للقرن السادس عشر

تميزت المرحلة الأولى للوجود البرتغالي في ملقا(١٥١١-١٥٢٦)، بالتوتر بسبب مقاومة الملايو والحرب التجارية وتكرار محاولات السلطان محمود لاستعادة السيطرة على ملقا وتحييد الجهود الدبلوماسية البرتغالية مع القوى المحلية. لذلك، اصبحت لدى البرتغاليين حاجة ملحة لكسب ثقة السلطنات المحيطة والتجار المسلمين. وفي الوقت نفسه، كان من المناسب موازنة البروز المتزايد لنفوذ الكلينج الهندوسي في ملقا. لذلك، اتخذ الحاكم البرتغالي الثاني لملقا، جورج دي ألبوكيرك، خطوة حاسمة، وتمكن من التوصل إلى اتفاق مع راجا عبد الله، سلطان كامبار. وعلى الرغم من كونه ابن أخ وصهر السلطان محمود ، الا انه أعلن ولاءه للتاج البرتغالي وفي عام ١٥١٤ تم تعيينه "مسؤولا (مانجكو بومي) على المسلمين في ملقا. ولتقويض هذا التحالف روج السلطان محمود خدعة بتآمر سلطان كامبار ضد البرتغاليين؛ وعلى أثر ذلك وبعد فترة وجيزة، أعدم البرتغاليون رجا عبد الله بتهمة الخيانة، مما أثار موجة من الصدمة وانعدام الثقة بين الممالك المجاورة والتجار المسلمين بالبرتغاليين. وفي عام ١٥٢٦، تمكن البرتغاليون من هزيمة السلطان محمود

مجلة كامبريدج للبحوث العلمية: مجلة علمية محكمة
تصدر عن مركز كامبريدج للبحوث والمؤتمرات–العدد الثامن الاربعون – آب ٢٠٢٥– صفر ١٤٤٧
ISSN–2536–0027

بصورة نهائية. وفي وقت لاحق،أصبحت العلاقات بين ملقا وجوهور تدريجيا ودية وأقل توتراً، اذ تم إنشاء تسوية مؤقتة في النصف الثاني للقرن السادس عشر، في شكل نوع من السيطرة المشتركة على المضيق،ولمدة عقدين تقريبا، بدءا من منتصف ستينيات القرن السادس عشر، كان هناك اتفاق غير رسمي بين السلطان والحاكم البرتغالي لتقاسم السلع والأرباح التجارية(Pearn,1963).

وعلى صعيد آخر فإن السياسة الاحتكارية التي اتبعها البرتغاليون في مضيق ملقا قادت الى تحول جانب مهم من النشاط التجاري الى موانئ اخرى في المضيق ومنها سومطرة حيث مثلت مملكة اتشيا فيها تحديا مهما لسلطان البرتغاليين، لذا حول البرتغاليون انتباههم الى هذه الموانئ بقصد السيطرة عليها، او إلغاء تجارتها اذا استدعى الامر، وهو الامر الذي تتطلبه مصلحة سيادة ملقا التجارية من وجهة نظرهم. وعلى غرار سلاطين ملقا أراد البرتغاليون، السيطرة على المضيق فحاولوا إنشاء موطئ قدم في سومطرة (Pearn,1963).

والواقع ان المشروع البرتغالي الأولي انطوى على إنشاء شبكة من الحصون التي يمكن أن تكون بمثابة مواقع داعمة لوجودها في ملقا، وتوفر إمدادات مهمة من الفلفل، المنتج في كل من سومطرة وسوندا، فضلا عن انها تعزز أمن ملقا وتعيد تأكيد السيطرة البرتغالية على المضيق، لأنها كانت تقع على الجانب الآخر من شبه جزيرة الملايو. لذا اتجهوا لاقامة علاقات جيدة مع باساي، في الطرف الشمالي لسومطرة، وبالتحديد عند مدخل المضيق. وحاولوا فرض نوع من "الحماية" على السلطنة في فترة زمنية قصيرة (١٥٢١-١٥٢٣)، مستغلين التوترات الداخلية ووجود عدة مرشحين للعرش. الا ان صعود آتشيا، كدولة جديدة وسعت نفوذها تدريجيًا في المضيق وأصبحت العدو الأكبر للبرتغاليين في ملقا، أضعف خطط الأولية، وتمكن ملكها من اخراجهم من باساي.

وبعد فشل التسوية الدائمة في سومطرة، حاول البرتغاليون اكتساب بعض النفوذ في جاوة، التي مثلت موردًا مهمًا للأرز، وكانت موانئ المدينة على طول الساحل الشمالي مراكز تجارية مزدهرة، وكان هناك إنتاج مهم للفلفل في جانبها الغربي (سوندا)، وأخيراً مضيق سوندا المجاور، الذي يمثل طريقا بديلاً لممر ملقا. لذلك، كان من المناسب للبرتغاليين أن يكون لهم موطئ قدم في المنطقة المحيطة. فتوصلوا إلى اتفاق مع مملكة باجاران الهندوسية، حيث وقعوا معاهدة رسمية (بموجبها يدفع الملك المحلي الجزية بالفلفل) ونصبوا عمودا حجريا دليلا لـ "الاستحواذ الفعلي باسم صاحب السمو". وفي جاوة، حاولوا ترتيب تحالف مع إمبراطورية ماجاباهيت. ومع ذلك، فإن انتشار الإسلام فيها وتوسع العديد من السلطنات الجاوية، مثل جابارا وديماك، غير المد وأحبط في نهاية المطاف النوايا البرتغالية المتمثلة في استيطان طويل الأمد في الجزيرة.

وبعد نهج مناهض للمسلمين، في جنوب شرق آسيا وفي أماكن أخرى، اضطر البرتغاليون لاتخاذ موقفا أكثر مرونة وعمليا تجاه القوى الإسلامية. ومن المؤكد أن وفاة الملك مانويل عام١٥٢١ وضعت حداً لمشاريع جنون العظمة الهادفة إلى هزيمة الإسلام واستعادة الأراضي المقدسة للمسيحية. وكان لابنه وخليفته جون الثالث نهج أكثر واقعية بكثير في التعامل مع الشؤون الآسيوية، وتوصل إلى إنشاء نوع من اتفاقية السلام غير الرسمية مع الإمبراطورية العثمانية من أجل خفض التوترات في المحيط الهندي والسماح للتجارة بالازدهار(Drakeley,2005).

ثامنا: التنافس الثلاثي في المضيق(ملقا، جوهور، اتشيا) في النصف الثاني للقرن السادس عشر

شهد ارخيل الملايو منذ مطلع النصف الثاني للقرن السادس عشر تنافسا ثلاثيا شمل البرتغاليين في ملقا وسلالة السلطان محمود في سلطنة جوهور وسلطنة اتشيا الاسلامية غربي سومطرة، اذ اراد كل منهم فرض النفوذ والسيطرة على طرق التجارة وبوسائل مختلفة كاستخدام القوة أو التأثير في المعتقدات، وفي

مجلة كامبريدج للبحوث العلمية: مجلة علمية محكمة
تصدر عن مركز كامبريدج للبحوث والمؤتمرات–العدد الثامن الاربعون – آب ٢٠٢٥– صفر ١٤٤٧
ISSN–2536–0027

الجانب الاخير برز البرتغاليون بمحاولة نشرهم المسيحية رغم اخفاقاتهم المتكررة(Pearn,1963). اذ جوبهت نشاطاتهم بمقاومة الممالك الاسلامية، ولاسيما اتشيا وجوهور، الا ان انقسام هاتين المملكتين المتنافستين مثل عاملا مهما وعلى نحو كبير في انقاذ ملقا البرتغالية من السقوط. فعلى الرغم من كونهما اهم مملكتين اسلاميتين تتمتعان بنفوذ في ارخبيل الملايو فقد استمرتا بحرب طاحنة فيما بينهم. فمن وجهة نظر الآشيين ان حرب البرتغاليين على ملقا لم تكن بدوافع دينية بل للتحكم بالمضائق تجاريا وبحريا. لذلك فأنهم كانت لديهم حماسة كبيرة لمهاجمة البرتغاليين، ولكن من دون التعاون مع ملايو جوهور، بل ارادوا طرد البرتغاليين لاعادة هذا المركز التجاري واخضاع الملايو لسيطرة اتشيا باعتبارها خليفة لممالك سريفجايا وماجافاهيت وسلطنة ملقا (Harrison,1954).

وقد استمر التنافس الثلاثي طوال القرن السادس عشر وكانت تأتي من حين لآخر قوات جاوية لمساعدة الملايو ، وقد مثل تشابك المصالح المتعارضة سلسلة من المعارك الحربية التي وقعت في ارخبيل الملايو منذ مطلع القرن السادس عشر فصعودا. ففي المدة ١٥٥٠-١٥٥١استولت قوات مشتركة من الملايو وجاوة في عملية برمائية على ضواحي ملقا لكنها فشلت في الاستيلاء على القلعة. وفي عام١٥٦٤ هاجم الاشيين ملايو جوهور واستولوا على مدينة جوهور لاما وتمكنوا من أسر السلطان(Harrison,1954)

اما بالنسبة للبرتغاليين فإن اتشيا لم تكن مجرد منافس مهم لهم في الشؤون التجارية، بل أصبحت قوة وسعت سيطرتها تدريجيا على مناطق إنتاج الفلفل في سومطرة وحاولت السيطرة على سلطنات الملايو الأخرى. وكان من شأن هذا التوسع أن يؤدي إلى توتر في التوازن بين القوى الثلاث الرئيسية التي تتقاسم، إذا جاز التعبير، الهيمنة في المضيق. وفي ستينيات القرن السادس عشر، واجه الوجود البرتغالي في آسيا نهجا جديدا تميز بضربات منسقة من عدة قوى إسلامية عبر المحيط الهندي على المواقع والملاحة البرتغالية، في وقت لم تكن فيه الحكومة البرتغالية في لشبونة مستعدة لصد الهجوم، حيث كانت تخضع لعملية إصلاح معقدة أثرت على الإمبراطورية الخارجية بأكملها. ففي جنوب شرق آسيا، اخذت اتشيا دور الطليعة الإسلامية في مقاومة الوجود البرتغالي في الملايو. إذ اجرت اتصالات رسمية مع الدولة العثمانية وتم إرسال مبعوثين إلى إسطنبول في عام ١٥٦٢ لشراء المدفعية والحصول على المساعدة. كما تم إرسال مندوب إلى باندا للاستعداد للحرب ضد البرتغاليين. وعلى الرغم من ان العلاقات بين آتشيا وملقا البرتغالية كانت غير مستقرة في العقود السابقة، وتراوحت بين التجارة السلمية والعداء العرضي، الا ان البيئة الجديدة أدت إلى حالة من الحرب المفتوحة بين الجانبين. وكان التعبير الأكثر وضوحا عنها هو حصار ملقا الذي نفذته آتشيا عام ١٥٦٨ (Pearn,1963) فضلا عن ثلاث هجمات متتالية في سبعينيات القرن السادس عشر، ففي المدة١٥٧١-١٥٧٥ شنتها قوات مشتركة من اتشيا ومملكة جابارا ضد ملقا الا ان القلعة بقيت صامدة (Harrison,1954).كما نظمت هجوما واسع النطاق على الملاحة البرتغالية في المضيق، وقد أدت محاولات الانتقام من البرتغاليين وجيرانهم الملايو والجاويين لاخطار كبيرة على الملاحة في المضيق. وقد أجبر الوضع السلطات في لشبونة على اتخاذ إجراءات غير مسبوقة، اذ قامت عام ١٥٧٦ بإرسال أسطول إلى ملقا على نحو مباشر، بقيادة ماتياس دي ألبوكيرك، والذي تمكن من إنهاء حالة التهديد وإعادة إرساء الحد الأدنى من مستويات الأمن للسفن البرتغالية في المنطقة(Pearn,1963).

وفي العقد التالي، أصبحت مسألة السيطرة على المضيق والحفاظ على الممر البحري آمنا للشحن البرتغالي أمرا بالغ الأهمية، إذ ظهرت حقيقة جديدة ومثيرة للقلق البرتغالي بشأن التوازن السياسي الثلاثي في المضيق. وذلك نتيجة حدوث تقارب بين السلطنتين الاسلاميتين المتنافستين جوهور واتشيا من بعضها البعض، وهو التغيير الذي دق ناقوس الخطر لدى البرتغاليين. ففي الواقع، انه على الرغم من التضامن

مجلة كامبريدج للبحوث العلمية: مجلة علمية محكمة
تصدر عن مركز كامبريدج للبحوث والمؤتمرات–العدد الثامن الاربعون – آب ٢٠٢٥– صفر ١٤٤٧
ISSN-2536-0027

الإسلامي المعلن والدعم الواضح لجهاد آتشيا، كانت جوهور في السابق متشككة للغاية ومترددة في تقديم الدعم الفعال لاتشيا ضد ملقا، فمن وجهة نظرهم ان آتشيا تشكل تهديدا أكثر خطورة من البرتغاليين. وكان السلاطين يدركون حقيقة أن سقوط ملقا في أيدي أتشيا من شأنه أن يخل بالتوازن الجيوسياسي للمضيق. فضلا عن ذلك، ان عاصمتهم جوهور لاما كانت قد تعرضت للهجوم من قبل قوات آتشيا في عام ١٥٦٤، وأسرت السلطان علاء الدين رعايت شاه، وبعد أربع سنوات انضم السلطان الجديد مظفر شاه إلى البرتغاليين ضد حصار آتشيا على ملقا. ولكن منذ عام ١٥٨٠، تغيرت الظروف اقامة سلطنة جوهور تحالفا ضد البرتغاليين. وكانت الدوافع ذات طبيعة سياسية في الأساس، فقد وصل حكام جدد إلى السلطة في كل من جوهور وآتشيا واختاروا التوصل إلى اتفاق متبادل المنفعة، توج بالزواج الدبلوماسي. ولذلك اصبحت ملقا في وضع خطير. فقد كانت استراتيجية البقاء الأساسية للبرتغاليين في منطقة المضيق هي انعدام الثقة بين المتنافسين. لذا كان التحالف بين آتشيا وجوهور يشكل خطراً لابد أن يؤخذ على محمل الجد، لأنه قد ينذر بهجمات أكثر قوة على ملقا والتجارة البرتغالية، فضلاً عن فرض حصار على جانبي المضيق. وهو ما حدث بالفعل في المدة ١٥٨٥-١٥٨٧. ومن المفارقات أن التهديد الأخطر الذي تعرضت له ملقا في أواخر القرن السادس عشر لم يأت من آتشيا بل من جوهور. وقد حقق السلطان علي جلا عبد الجليل شاه (١٥٨٠–١٥٩٧) مكانة غير مسبوقة في التوازن الإقليمي، وذلك بفضل مهاراته الدبلوماسية وقيادته السياسية. وتحت قيادته، تمكنت جوهور من الظهور ببطء كقوة مهيمنة في منطقة المضيق، وذلك بفضل سياسته المرسومة بعناية تجاه ملقا وآتشيا. بالنسبة للبرتغاليين، فهم علي جالا أن السلطة في ملقا كانت في أيدي النقباء، الذين كانوا في ذلك الوقت يسيطرون فعليا على معظم التجارة في المدينة. لذلك، لجأ الى تجديد وتعزيز اتفاقية غير رسمية كانت سارية بالفعل منذ ستينيات القرن السادس عشر، بموجبها تم تحويل التجارة الجاوية الى جوهور، ولاسيما ان تجار جاوة يمثلون المجموعة التجارية الأكثر أهمية التي تزود ملقا بالتوابل والسلع الأخرى. وهنا مارست جوهور دور البرتغاليين نفسه في استحصال الضرائب والجمارك، في تقليد واضح لـ ممارسات ما عرف بـ "التجارة القسرية" البرتغالية .وعمت الفائدة على السلطان والحاكم البرتغالي، الا ان الخزانة الملكية في ملقا تعرضت لأضرار كبيرة(Pearn,1963).

وعلى الصعيد الآخر رجح بعض الباحثين ان خطته تضمنت فرض حصارا على ملقا بالاشتراك مع اتشيا وكان البرتغاليون مدركين تماما للخطر، واعترفوا بمكانة جوهور بين سلطنات الملايو، وأطلقوا عليه لقب "إمبراطور كل الملايو". كما اخذ البرتغاليون بنظر الاعتبار خطر ولاء سكان أرخبيل رياو-لينغا الذي كان يسيطر على مضيق سنغافورة، لسلطان جوهور. وبدأت معلومات واضحة ومثيرة للقلق حول ذلك تصل إلى السلطات في غوا. وفي تلك الأثناء، توفي منصور شاه ولم يتم فرض الحصار المزدوج ولا الضربة المشتركة على ملقا. ومع ذلك، تمكنت جوهور من حصار مضيق سنغافورة، ومنع مرور الأسطول البرتغالي القادم من ماكاو، وحول التجارة الجاوية بالكامل إلى عاصمته. الا ان وصول أسطول الإنقاذ من غوا، تحت قيادة د. باولو دي ليما بيريرا، والهجوم على جوهور وتدمير العاصمة جوهور لاما وضع حدا لهذه لمحاولات جوهور اعادة فرض الهيمنة على المضيق. وكما فعل السلطان محمود شاه قبل نصف قرن، فقد فر سلطان جوهور من المدينة وأسس عاصمة أخرى على بعد أميال قليلة من النهر. وحتى نهاية القرن، تمكنت ملقا البرتغالية من إبقاء ممر المضيق مفتوحا ودون مزيد من الاضطرابات. وفضلا عن ذلك في عام ١٥٩٢، قدم سلطان اتشيا علاء الدين رعايت شاه(١٥٨٩-١٦٠٤) مبادرة سلام غير متوقع، في أعقاب غرق سفينة ناو على شواطئ سومطرة، في طريقها من غوا إلى ماكاو. وتضمنت المبادرة انه في مقابل عودة البرتغاليين (ومن بينهم أسقف ماكاو) ، طلب السلطان الإذن بالمرور عبر المضيق والمرور عبر ملقا

مجلة كامبريدج للبحوث العلمية: مجلة علمية محكمة
تصدر عن مركز كامبريدج للبحوث والمؤتمرات–العدد الثامن الاربعون – آب ٢٠٢٥– صفر ١٤٤٧
ISSN-2536-0027

بأسطوله الحربي في طريقه إلى جوهور، دون أن يتعرض للأذى من قبل القوات البرتغالية. وكان ذلك بمثابة مقدمة لفترة قصيرة وغير مسبوقة من الاتصالات الدبلوماسية المكثفة وتبادل السفارات والهدايا والمشاريع، وخلالها وعد السلطان بتزويد البرتغاليين بشحنات من الفلفل والسماح لهم بإقامة حصن في مملكته. وتمتعت ملقا بفترة من الأهمية الإقليمية، مستغلة العداء المتبادل المتجدد بين آتشيا وجوهور. وعبر عن ذلك نائب الملك د. فرانسيسكو دا جاما في رسالة إلى الملك: **"بمساعدة ربنا، سوف يدمرون بعضهم بعضاً"**. ومع ذلك، فإن فترة الهدوء كانت قصيرة، لأن تهديداً أكثر خطورة كان في طريقه الى المضيق(Pearn,1963). فقد حملت بداية القرن السابع عشر تطورا تاريخيا مهما آخر، فبعد أن ظل البرتغاليون الأوروبيين الوحيدين في المنطقة لما يقرب من قرن من الزمان، باستثناء الغارات الإسبانية والإنجليزية البسيطة، واجهوا منافسا أوروبيا جديدا وهم الهولنديين، الذين وصلت بعثتهم الأولى إلى الهند في عام ١٥٩٦ (Drakeley,2005)

تاسعا: عوامل تراجع النفوذ البرتغال في ارخبيل الملايو

اخذ موقف البرتغاليين بمرور الوقت بالضعف في ارخبيل الملايو، بسبب اختلال الأمن الذي ساد الارخبيل بعد احتلالهم ملقا وفرضهم سياسة احتكارية، الامر الذي جعلهم في مرمى مقاومة الممالك الاسلامية جوهور واتشيا. كما أثر انتقال نشاط المسلمين التجاري الى موانئ أتشيا وجوهور وبورنيو وموانئ اخرى سلبا على النشاط التجاري في ملقا.كما شكلت تقوية دفاعات ملقا البرتغالية وغيرها من الحصون والموانئ ضد هجمات اتشيا وجوهور عبئا ثقيلًا على موارد البرتغال، إذتوجب عليها الحفاظ على إمبراطورية الحصون والموانئ المنتشرة في المنطقة الممتدة بين البرازيل في أمريكا الجنوبية غربا، وماكاو في الصين شرقا. فضلا عن ان البرتغال لم تكن تملك طاقات بشرية كافية لحماية فلاعها الممتدة على طول تلك المنطقة. لذلك فقد اضطرت لالتزام جانب الدفاع لحماية وجودها في الشرق. ولاسيما اذا ما علمنا ان عدد سكانها لم يتجاوز المليون ونصف مليون نسمة فقط. كما انها فقدت العديد من رجالها اثناء رحلاتهم للدفاع عن مكاسبها في الشرق.

والى جانب ما تقدم، ان بعض البرتغاليين الذين جاءوا إلى ملقا وجزر التوابل كانوا رجالا سيئي الأخلاق، إذ تم ابعادهم من البرتغال أو من غوا، للتخلص منهم. كما أدت المحاولات البرتغالية لنشر المسيحية إلى خلاف مستمر مع الممالك الإسلامية، التي استاءت أيضا من محاولة احتكار التجارة وعمليات القرصنة، وتعرضت لحرب متواصلة، ليس من الحكام المسلمين في مالايا وسومطرة فحسب، بل شارك أيضا الأمراء المسلمون من جاوة في بعض الأحيان في جهود هؤلاء الحكام للإطاحة بالوجود البرتغالي في ملقا. وهكذا، فبعد انتصاراتهم الاولية، وجد البرتغاليون أن موقفهم ضعيف بشكل متزايد في جزر التوابل(الملوكا)، حيث تكمن مصالحهم التجارية على نحو رئيس، اذ اشتبك البرتغاليون مع السلطان هارون من تيرنات، الذي عارض عمل المبشرين المسيحيين، وفي عام ١٥٧٠ قُتل عندما زار القلعة البرتغالية. وبعد ذلك، بدأ ابنه وخليفته باب الله الحرب، وحاصر البرتغاليين في تيرنات لمدة خمس سنوات. وخلال ذلك الوقت لم ترسل ملقا ولا غوا أي مساعدة. وفي عام ١٥٧٦ استسلمت القلعة. لكن موت باب الله أعطى البرتغاليين فرصة لاستعادة الوضع في جزر الملوكا. وبعد ان أصبحت البرتغال تحت حكم ملك إسبانيا عام ١٥٨٠، توقف التنافس مع الإسبان. وتلقى البرتغاليون بعض الدعم منهم، وتمكنوا من الحفاظ على تيرنات وأماكن أخرى، لكن موقفهم لم يكن قويا كما كان من قبل(Pearn,1963).

وفضلا عما تقدم، أثار الاحتكار البرتغالي للتجارة حسد ونفاد صبر الشعوب الأوروبية الأخرى أيضًا، ولاسيما ان البرتغال التي كانت تحت حكم ملك إسبانيا، شاركت في الحرب ضد الهولنديين، الذين كانوا

مجلة كامبريدج للبحوث العلمية: مجلة علمية محكمة
تصدر عن مركز كامبريدج للبحوث والمؤتمرات–العدد الثامن الاربعون – آب ٢٠٢٥– صفر ١٤٤٧
ISSN–2536–0027

يخوضون حرب الاستقلال ضد الإسبان؛ لذا هاجم الهولنديون البرتغاليين تماما كما هاجموا الإسبان، وأرادوا إضعاف وضع البرتغال الاقتصادي كوسيلة للحد من قوة ملك اسبانيا. هذا من جانب، ومن جانب آخر فقد ظهر الهولنديون والانجليز وغيرهم من الأوربيين،كمنافسين للبرتغاليين في جنوب شرقي آسيا، وتبع ذلك ظهور مراكز تجارية اوربية ومحلية أخرى على السواحل المطلة على مضيق ملقا واخذت تنافس ملقا في نشاطها التجاري وتماثلها كفاءة في اعداد التسهيلات للسفن وشحن البضائع التجارية وتفريغها، ومن أهم هذه المراكز بتافيا وأتشيا، وترجع أهمية هذين المركزين الى موقعهما الجغرافي، وكانت بتافيا واقعة في الساحل الشرقي من جزيرة جاوة وهي مستعمرة هولندية ومركز نشاط الهولنديين التجاري في الشرق، وكان موقعها الجغرافي هذا يعطي لها الهيمنة على المدخل الجنوبي لمضيق ملقا، وأما أتشيا فقد مكنها موقعها في الشمال الشرقي من سومطرة من التحكم في المدخل الشمالي لمضيق ملقا، وقد جعل تحكم اعداء البرتغاليين من الاوربيين والاشيين في مدخلي المضيق الجنوبي والشمالي مسألة الحصار على تجارة البرتغاليين من أعدائهم يأتي بنتيجة فعالة(Harrison,1954).

وفي نهاية القرن السادس عشر، أصبح وضع البرتغاليين غير آمن للغاية، وتحت الضغط العسكري والتجاري المتزايد من الهولنديين والإنجليز، فُقدت العديد من الممتلكات البرتغالية بدءًا من عام ١٦١٠. وسقطت ملقا في أيدي الهولنديين في يناير ١٦٤١، منهيةً بذلك فترةً قاتمة من الانكماش في الإمبراطورية البرتغالية الشرقية(Lousã And João Pedro Vieira,2021) وبحلول نهاية القرن السابع عشر فقدوا جميع أراضيهم في جنوب شرق آسيا باستثناء جزء من جزيرة تيمور وسيطرتهم غير المؤكدة على الجزيرة المجاورة سولور وطرف فلوريس. ومع ذلك، فقد ظلوا يسيطرون على ماكاو في الصين وغوا وميناء أو اثنين آخرين في الهند(Pearn,1963;Winsted,1966).

الخاتمة

في ختام البحث تم التوصل لنتائج عدة أهمها:

١-مثل سقوط سلطنة ملقا الاسلامية عام١٥١١، تغييرا جذريا في ميزان القوى الإقليمية، لصالح البرتغاليين الذين تمكنوا من خلال اتباع استراتيجية واضحة المعالم، من السيطرة على طرق التجارة الرئيسية في المحيط الهندي في غضون مدة قصيرة من اكتشافهم طريق رأس الرجاء الصالح عام ١٤٩٨، وكان مضيق ملقا ممرا لا غنى عنه للوصول إلى الشرق الأقصى.

٢- أدى استخدام البرتغاليين لما عرف بالتجارة القسرية في مضيق ملقا، والتي أصبحت شائعة في أواخر القرن السادس عشر، الى اضعاف قدرة ملقا على جذب التجار الآسيويين، وزاد الأمر خطورة استيلائهم تدريجيا على أهم خطوط التجارة المرتبطة بملقا وممارستهم عمليات الابتزاز المتكررة، وادعائهم الحقوق الحصرية وفرضهم أسعارا وشروطا مواتية لهم فحسب.

٤- على الرغم من ان استراتيجية البرتغاليين حققت نجاحا تجاريا كبيرا لبعض الوقت، وتمكنوا من ان يحلوا محل التجار المسلمين كموردين للتوابل إلى أوروبا، الا ان افتقارهم إلى السفن والرجال حال دون تحقيق طموحاتهم الواسعة، وحتى مع استيلائهم على ملقا لم يستطيعوا ان يكونوا قوة محلية مهيمنة، مما أنهى النمط التأريخي للأمبراطوريات التجارية (سريفيجايا، ماجاباهيت، ملقا) الذي لم يتكرر منذ ذلك الحين حتى صعود الهولنديين. اذ أثبت البرتغاليون عدم قدرتهم على شغل مكانة ملقا، وانقسمت السلطة في المنطقة فعليا بين العديد من الامارات والممالك، ولاسيما جوهور واشيا. كما تعطلت التجارة وتغيرت أنماطها بشكل خطير بسبب السياسة الاحتكارية التي اتبعها البرتغاليون لعقود من الزمن في مضيق ملقا ، فتحول جانب مهم من النشاط التجاري الى دول الميناء البديلة، مثل جوهور وآتشيا الناشئة، التي اغتنمت الفرصة لتصبح قوى

ISSN–2536–0027

مهمة. لذا فإن البرتغاليين لم يكن بوسعهم الا ان يكونوا مجرد مشارك قوي آخر في الشؤون الإقليمية، وعملوا إلى حد كبير وفقاً للقواعد المحلية الراسخة.

٥- مع صعود قوة الممالك والامارات الاسلامية في جنوب شرقي اسيا اضطر البرتغاليون لاتخاذ موقف أكثر واقعية وعمليا، فبحلول النصف الثاني من القرن السادس عشر، برزت مملكتا جوهر وآتشيا، اللتان خلفتا سلطنة ملقا، كقوى مؤثرة في التجارة والدبلوماسية والحرب، الى جانب الوجود البرتغالي المؤثر على توازن القوى الإقليمي. لذا وجد البرتغاليون أن أي توسع من جانبهما ولاسيما من سلطنة اتشيا يمكن أن يؤدي إلى توتر في التوازن بين القوى الثلاث الرئيسية التي تتقاسم، إذا جاز التعبير، الهيمنة في المضيق. إذ مثل إبقاء مضيق ملقا مفتوحا أمام الملاحة البرتغالية أولوية قصوى، في سياسة البرتغاليين.

٦-واجه الوجود البرتغالي في آسيا في ستينيات القرن السادس عشر، واجه نهجا جديدا تميز بضربات منسقة من عدة قوى إسلامية عبر المحيط الهندي على المواقع والملاحة البرتغالية، بسبب سياستهم الاحتكارية وسعيهم المتواصل لنشر المسيحية، إذ اخذت اتشيا دور الطليعة الإسلامية في مقاومة الوجود البرتغالي في الملايو، وطلبت المساعدات من الدولة العثمانية. وعلى الرغم من ان العلاقات بين آتشيا وملقا البرتغالية اتسمت بأنها غير مستقرة في العقود السابقة، وتراوحت بين التجارة السلمية والعداء العرضي، الا ان البيئة الجديدة أدت إلى حالة من الحرب المفتوحة بين الجانبين. الامر الذي اضطر السلطات في لشبونة لإرسال أسطول إلى ملقا عام١٥٧٦ وإنهاء حالة التهديد وإعادة إرساء الحد الأدنى من مستويات الأمن للسفن البرتغالية في المنطقة.

٧- أصبحت مسألة السيطرة على المضيق والحفاظ على الممر البحري آمنا للشحن البرتغالي في أواخر القرن السادس عشر، أمرا بالغ الأهمية، إذ ظهرت حقيقة جديدة ومثيرة للقلق البرتغالي بشأن التوازن السياسي الثلاثي في المضيق، وذلك نتيجة حدوث تقارب بين السلطنتين الاسلاميتين المتنافستين جوهور واتشيا من بعضها البعض، وهو التغيير الذي دق ناقوس الخطر لدى البرتغاليين، فقد كانت استراتيجية البقاء الأساسية لهم في منطقة المضيق هي انعدام الثقة بين المتنافسين. لذا كان التحالف بين آتشيا وجوهور يشكل خطراً لابد أن يؤخذ على محمل الجد. وهكذا وقع الوجدو البرتغالي في جنوب شرقي آسيا بين مد وجزر القوى المحلية حتى ظهور المنافسين الجدد الهولنديين والانجليز وغيرهم من الأوربيين في جنوب شرقي آسيا.

قائمة المصادر

الوثائق البرتغالية

- Cortesao (ed), A (2005) The Suma Oriental of Tome Pires, an account of the East, from the Red Sea to Japan, written in Melaka and India in 1512-15, and The Book of Francisco Rodrigues, rutter of a voyage in the Red Sea, nautical rules almanack and maps. vol.2, New Delhi, PP.234-285.
- السجل الكامل لأعمال أفونسودلبوكيرك ثاني نائب ملك البرتغال في الهند،ألفه وجمع وثائقه ابنه غير الشرعي،(٢٠٠٠) ترجمة عبد الرحمن عبدالله الشيخ،ط١ ابو ظبي: المجمع الثقافي،ص١٣٧-١٥٢.

الكتب والدراسات

- Al-Aboudi,N.(2021) THe Islamic Sultanate Of Malacca: A Study Of Its Inception And The Factors Of Its Development Into A Global Trade Center

ISSN–2536–0027

In The First Half Of The 15 Th Century, Palarch's Journal Of Archaeology Of Egypt/Egyptology ,Vol. 18 No. 5,PP.491-510.

- Harrison, B. (1954). South-East Asia: A Short History. London.
- Cady,J. (1964) South East Asia its Historical Development, United states of America: Mc Graw Hill,PP.155-161.
- Danvers, F. (1894)The Portuguese in India A Beginning A History of the Rise and Decline of the Eastern Empire, London.
- Hall, D.(1955),A History of Southeast Asia,Macmillan Company, London.
- John,H (1853) The Indian Archipelago: its history and present state. Longman, London, Vol.1,PP.49-51.
- Lopes,(2025),The Portuguese in Southeast Asia:Cultural Transfers and Transnational Identities in Malacca: in(eds) Hoon Chang Yau,Paul J. Carnegie,Transnational Southeast Asia Communities, Contestations and Cultures,registered company Springer Nature Singapore Pte Ltd,Singapore,PP.257-280.
- Ljungstedt,A.(1836) An historical sketch of the Portuguese settlements in China : and of the Roman Catholic church and mission in China, Boston : James Munroe & Co,
- Lousã And Vieira,(2021),The Portuguese coinage of Malacca, 1511–1641: History, mystery and recent discoveries, tokenpublishing, PP.55-56.
- Pinto,(2012),The Portuguese and the Straits of Melaka, 1575–1619 Power, Trade and Diplomacy, NUS Press, National University of Singapore,PP.123-126.
- Pinto,P.(2013), Share and Strife The Strait of Melaka and the Portuguese (16th and 17th centuries),Orientierungen Themenheft,PP.65-86.
- Pearn, B.,(1963)Introduction to the History of Southeast Asia, The Long Man of Malaya, Hong Kong.
- Straits of Malacca and Singapore: Meeting the Challinges Ahead, Singapore Journal of International & Comparative Law, (1998), P.247.
- Rayn, N. (1968) The Making of Modern Malaysia. A history from Earliest Tim to 1966, Fourth edition, London: Oxford university, PP.12-23.
- Winsted, R. (1966) Malaya and its history, seventh edition, London: Hutchinson University Library, P. 33-38.

مجلة كامبريدج للبحوث العلمية: مجلة علمية محكمة
تصدر عن مركز كامبريدج للبحوث والمؤتمرات–العدد الثامن الاربعون – آب ٢٠٢٥– صفر ١٤٤٧
ISSN–2536–0027

(١) حول التسلسل الاداري الهرمي في سلطنة ملقا ينظر: للمؤلفة سلطنة ملقا الاسلامية دراسة في نشأتها وعوامل تطورها الى مركز تجاري عالمي في النصف الاول للقرن الخامس عشر مجلة اكليل للدراسات الانسانية،١،١٢،٢٠٢٢.

Nadia Kadhim Mohammed Al-Aboudi, THe Islamic Sultanate Of Malacca: A Study Of Its Inception And The Factors Of Its Development Into A Global Trade Center In The First Half Of The 15 Th Century, Palarch's Journal Of Archaeology Of Egypt/Egyptology ,Vol. 18 No. 5 (2021),PP.491-510.

(٢) ضمنت الحماية التي وفرها البوكيرك للتجار الصينيين، معاملة حسنة للسفن التجارية البرتغالية التي أبحرت الى الصين في حدود عام١٥١٣، وفي١٧ يونيو١٥١٧، وصلت الى قوانغتشو بعثة من الملك امانويل الأول ملك البرتغال برفقة أسطول من ثماني سفن، واستقبل مبعوث الملك توم بيريز بحفاوة كبيرة، فيما حصل الاسطول على إذن من سلطات حكومة المينغ بفتح مركز تجاري، وفي يناير١٥٢١ وصل بيريز إلى بكين للقاء الامبراطور، وبالتزامن مع ذلك وصل مبعوث السلطان محمود ناشد الإمبراطور تشنغده المساعدة ضد البرتغاليين، الا ان الامبراطور توفي بعد ان رفض آنذاك، ولجأ خليفته جياجينغ لاحتجاز البعثة البرتغالية كرهينة في قوانغتشو، حتى يُعيد البرتغاليون ملقا إلى السلطان محمود. وتم الاستيلاء على ممتلكات معظم أو جميع أعضاء السفارة وسُجنوا، ومات الكثير منهم في الأسر أو أُعدموا وكان من بينهم بيريز الذي كتب تقريرا مفصلا للملك ونشر لاحقا كتابا بعنوان سوما اورينتل. وحُظر الوجود البرتغالي في الصين، على الرغم من أن العديد من البرتغاليين استمروا في الإبحار من ملقا لمزاولة التجارة أو التهريب. الا ان العلاقات مع الصين تحسنت تدريجيا، ولاسيما بعد ان قدم البرتغاليون المساعدة للسفن الصينية ضد قراصنة ووكو على طول شواطئ الصين، وبحلول عام ١٥٥٧، وافقت الصين على السماح للبرتغاليين بالاستقرار في ماكاو

For more see: Andrew Ljungstedt, An historical sketch of the Portuguese settlements in China : and of the Roman Catholic church and mission in China, Boston : James Munroe & Co., 1836.